سورة الحاقة

مكية، إحدى وخمسون آية، مائتان وست وخمسون كلمة، ألف وأربعمائة وثمانون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{ ٱلْحَاقَّةُ مَا ٱلْحَآقَّةُ} أي أيّ شيء هي {وَمَآ أَدْرَاكَ} أي وأيّ شيء أعلمك {مَا ٱلْحَاقَّةُ} أي إنك لا علم لك يا أشرف الخلق بكنهها، ومدى عظمها، والحاقة هي الساعة الثابتة الوقوع، الواجبة المجيء، أو التي تحق فيها الأمور، أي تعرف على الحقيقة، {كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِٱلْقَارِعَةِ} أي بالحالة التي تقرع قلوب الناس بالإفزاع وهي القيامة، وقوارعها انفطار السماء، وانشقاقها، ودك الأرض، ونسف الجبال، وطمس النجوم وانكدارها، {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ} أي بالصيحة المجاوزة للحد في القوة، {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ}، أي باردة {عَاتِيَةٍ}، أي مجاوزة للحد في شدة عصفها، {سَخَّرَهَا} أي سلطها {عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً}، أي متتابعة من صبيحة أربعاء لثمان بقين من شوال إلى غروب الأربعاء الآخر، فكان آخرها هو اليوم الأخير منه، {فَتَرَى ٱلْقَوْمَ} أي قوم هود إن كنت حاضراً وقتئذ {فِيهَا} أي في مهاب الريح {صَرْعَىٰ}، أي موتى مجندلين على الأرض، {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ} أي كأنهم أصول نخل ساقطة بالية، {فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ}؟ قال قوم: أي لم يبق من نسل أولئك القوم أحد.

وقال ابن جريج: كانوا سبع ليال وثمانية أيام، أحياء في عقاب الله من الريح، فلما أمسوا اليوم الثاني ماتوا، فاحتملتهم الريح، فألقتهم في البحر، فذلك قوله تعالى: {فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مّن بَاقِيَةٍ}. {وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ} قرأه أبو عمرو والكسائي بكسر القاف وفتح الباء، أي ومن عنده من أتباعه وجنوده، ويؤيده قراءة ابن مسعود، وأبيّ وأبي موسى «ومن تلقاءه». وقرأ أبي أيضاً ومن معه، والباقون بفتح القاف وسكون الباء أي من تقدمه من الأمم. {وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ} أي أهل القريات الخمسة المنقلبات قوم لوط، وهي صنعة، وصعرة، وعمرة، ودوما، وسذوم {بِٱلْخَاطِئَةِ} أي بالخطأ، كتكذيب البعث، وكاللواط والصفع والضراط، وغير ذلك من أنواع المعاصي، {فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ} موسى ولوطاً وغيرهما، {فَأَخَذَهُمْ} أي الله تعالى {أَخْذَةً رَّابِيَةً}، أي زائدة في الشدة على عقوبات سائر الكفار، كما أن أفعالهم كانت زائدة في القبح على أفعال سائر الكفار {إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ} أي ارتفع الماء وزاد أعلى جبل خمسة عشر ذراعاً، وذلك في زمن نوح {حَمَلْنَٰكُمْ} في أصلاب آبائكم {فِى ٱلْجَارِيَةِ} أي في سفينة نوح عليه السلام، {لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً} أي لنجعل هذه القصة التي هي نجاة المؤمنين وإغراق الكفرة عظة لكم، تتعظون بها {وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ}، أي ليحفظها قلب حافظ ويقال: تسمع هذا الأمر أذن سامعة، فتنتفع بما سمعت.

وقرأ نافع بسكون الذال وقرأ العامة «وتعيها» بكسر العين

{وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَ ٱلۡجِبَالُ} أي وبعد خروج الناس من قبورهم رفعت الأرض والجبال من أماكنها إما بالزلزلة أو بريح، أو بملك من الملائكة، أو بقدرة الله من غير سبب {فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً}. أي ضربت إحدى الجملتين بالأخرى ضربة واحدة، فتفتت وصارت كثيباً مهيلاً {فَيَوۡمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ} أي قامت القيامة الكبرى. وهذا جواب «إذا»، {وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ} لنزول الملائكة، {فَهِيَ} أي السماء {يَوۡمَئِذٍ وَاهِيَةٌ} أي ساقطة القوة بعدما كانت محكمة شديدة، {وَ ٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَآ} أي والملائكة واقفون على أطراف السماء التي لم تسقط، فهؤلاء من جملة المستثنى ممن يموتون في الصعقة الأولى.

وقيل: إنهم يقفون لحظة على أطراف السماء ثم يموتون، {وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ} أي حال كون العرش فوق الملائكة الواقفين على جوانب السماء {يَوۡمَئِذٍ} أي يوم وقعت الواقعة، {ثَمَٰنِيَةٌ} من الأملاك وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إن حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أمدهم الله تعالى بأربعة أخرى، فكانوا ثمانية على صورة الأوعال»، أي تيوس الجبل. وفي حديث آخر: «لكل ملك منهم وجه إنسان ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر وكل وجه منها يسأل الله الرزق لذلك الجنس». قال بعضهم: واسم أحدهم روقيل ولبنان.

وقال ابن عباس: هم ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى {يَوۡمَئِذٍ} أي يوم قامت القيامة {تُعۡرَضُونَ} على الله، أي تسئلون وتحاسبون.

وروي أن في يوم القيامة ثلاث عرضات: عرض للحساب والمعاذير، وعرض للخصومات والقصاص، وعرض لتطاير الكتب وقراءتها. {لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٌ} أي لا يخفى يوم القيامة ما كان مخفياً منكم في الدنيا فإنه تظهر أحوال المؤمنين فيتكامل بذلك سرورهم، وتظهر أحوال أهل العذاب، فيظهر بذلك حزنهم وفضيحتهم. وقرأ حمزة والكسائي «لا يخفى» بالياء التحتية {فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ} كأبي سلمة بن عبد الأسد. {فَيَقُولُ} لأصحابه تبجحاً وابتهاجاً: {هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ} أي خذوا كتابي وانظروا ما فيه من الثواب والكرامة، {إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ} أي إني في الدنيا تيقنت أني ألقى حسابي في الآخرة ولم أنكر البعث. وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إن الرجل يؤتى به يوم القيامة ويؤتى كتابه، فتكتب حسناته في ظهر كفه، وتكتب سيئاته في بطن كفه فينظر إلى سيئاته فيحزن فيقال له: اقلب كفك فينظر فيه فيرى حسناته فيفرح، ثم يقول: هاؤم اقرؤا كتابيه إني ظننت عند النظرة الأولى أني ملاق حسابيه على سبيل الشدة، وأما الآن فقد فرج الله عني ذلك الغم». {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ} أي منسوبة إلى الرضا {فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} في المكان والدرجة {قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ} أي ثمارها قريبة يتناولها القاعد يقول الله لهم: {كُلُواْ} من الثمار {وَ ٱشۡرَبُواْ} من الأنهار {هَنِيٓـَٔۢا}، أي بلا تعب في تحصيل الأكل والشراب وبلا داء في تناولهما {بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ}، أي بمقابلة ما قدمتم من الأعمال الصالحة في الأيام الماضية وهي أيام الدنيا، {وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ} كالأسود بن عبد الأسد {فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ

أُوتَ كِتَٰبِيَهْ}، أي لم أعط كتابي هذا الذي ذكرني قبائح أفعالي حتى لا أقع في هذه الخجالة، {وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ} أي أيّ شيء حسابي من ذكر العمل وذكر الجزاء، {يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ} أي ليت هذه الحالة كانت موتة انتهيت إليها، أو ليت الموتة التي مت بها في الدنيا كانت قطعة لأمري فلم أبعث بعدها ولم ألق ما ألقى، {مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ}، و «ما» إما نافية و «مالية» كلمة واحدة، أي ما دفع عني من عذاب الله مالي الذي جمعته في الدنيا أو استفهامية، و «ما ليه» كلمتان. أي أيّ شيء نفعني مما كان لي من المال والأتباع.

{هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ} أي ضلت عني حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا أو ذهب ملكي وتسلطي على الناس وبقيت فقيراً ذليلاً، فيقول الله تعالى يومئذٍ لخزنة النار: {خُذُوهُ} أيتها الزبانية {فَغُلُّوهُ} أي شدوه بالأغلال، فيبتدر إليه مائة ألف ملك وتجمع يده إلى عنقه ورجله إلى وراء قفاه إلى ناصيته، {ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ} أي النار العظمى {صَلُّوهُ} أي شووه، {ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا} أي قدرها بذراع الملك {سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَٱسْلُكُوهُ} أي أدخلوه.

قال ابن عباس: تدخل السلسلة من دبره وتخرج من حلقه، ثم يجمع بين ناصيته وقدميه، ثم يجعل في عنقه سائرها. وقال نوف البكالي: كل ذراع سبعون باعاً كل باع أبعد مما بين مكة والكوفة، {إِنَّهُ كَانَ} في الدنيا {لاَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِوَلاَ يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ}، أي ولا يحث على بذل طعام المسكين.

وعن أبي الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ويقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع النصف الباقيٰ {فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ} أي فليس له في ذلك الوقت في مجمع القيامة قريب يدفع عنه ويحزن عليه، {وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ}.

قال الكلبي: هو ما يسيل من أهل النار إذا عذبوا من القيح والدم والصديد، {لاَّ يَأْكُلُهُ إِلاَّ ٱلْخَٰطِئُونَ} أي المتعمدون للذنوب وهم المشركون. وقرأ الزهري، والعتكي، وطلحة، والحسن «الخاطيون» بياء مضمومة بدل الهمزة. وقرأ نافع في رواية وشيبة بطاء مضمومة بدون همز، أي الذين يتخطون الحق إلى الباطل ويتعدون حدود الله {فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ}، و «لا» مزيدة أو أصلية رد لإنكارهم البعث، أي أقسم بما تبصرون يا أهل مكة من شيء، كالسماء والأرض، والشمس والقمر، ومحمد صلى الله عليه وسلم، وما لا تبصرون من شيء، كالجنة والنار، والعرش، والكرسي وجبريل عليه السلام، فالأشياء لا تخرج من قسمين مبصر وغير مبصر. فالأقسام يعم جميع الأشياء على الشمول، {إِنَّهُ} أي القرآن {لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} على الله وهو النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما نسب القرآن هنا لرسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه الذي أظهره للخلق، ودعا الناس إلى الإيمان به، وجعله حجة لنبوته، ونسب في سورة {إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ} (التكوير: 1) إلى سيدنا جبريل عليه السلام، لأنه الذي أنزله من السموات إلى الأرض وهو كلام الله تعالى بمعنى أنه تعالى هو الذي أظهره في اللوح المحفوظ، وهو الذي

رتبه، ولذا قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: إن القرآن قول الله نزل به جبريل على رسول كريم محمد صلى الله عليه وسلم {وَمَا هُوَ} أي القرآن {بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ} أي ليس هذا القرآن قولاً من رجل شاعر، لأنه مباين لصنوف الشعر إلا أنكم لا تقصدون الإيمان به، فلذلك تعرضون عن التدبر ولو قصدتم الإيمان لعلمتم كذب قولكم أنه شعر، وليس بقول رجل كاهن، لأنه وارد بشتم الشياطين، إلا أنكم لا تتذكرون اشتماله على سب الشياطين، فلذلك تقولون: إنه من باب الكهانة و «ما» مزيدة لتأكيد معنى القلة وانتصب قليلاً على أنه نعت لمصدر محذوف، أي تؤمنون إيماناً قليلاً وتذكرون تذكراً قليلاً فإنهم قد يؤمنون في قلوبهم ويتذكرون بها، إلا أنهم يرجعون عن ذلك سريعاً، ولا يتمون الاستدلال كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله تعالى: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ} (المدثر: 81) وقال في آخر الأمران: {إِنْ هَٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ} (المدثر: 42)، وإما نافية فينتفي إيمانهم وتذكرهم ألبتة، أي لا يؤمنون أصلاً ب أن القرآن من الله ولا يتذكرون أصلاً كيفية نظم القرآن.

قال مقاتل: وسبب نزول هذه الآية أن الوليد بن المغيرة قال: إن محمداً ساحر.

وقال أبو جهل: شاعر.

وقال عقبة: كاهن. فرد الله تعالى عليهم بذلك. وقرأ ابن كثير وكذا ابن عامر على خلاف عن ابن ذكوان بالياء التحتية في «يؤمنون»، و «يذكرون» وخفف ذال «تذكرون» حمزة والكسائي وحفص. {تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ} أي بل هو تنزيل من موجدهم على محمد على وجه التنجيم. وقرأ أبو السماك «تنزيلاً» أي نزل تنزيلاً، {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ} أي ولو نسب محمد إلينا قولاً لم نقله، لأخذنا يمينه، ثم لضربنا رقبته، فإن الوتين هو عرق متصل بالرأس من القلب، وهذا تمثيل بما يفعله الملوك بمن يكذب عليهم، والمراد أنه لو كذب علينا لأمتناه ويقال: لو نسب محمد إلينا قولاً لم نأذن له في قوله لسلبنا عنه القوة، ثم لقطعنا نياط قلبه بضرب عنقه، ويقال: لو افترى محمد علينا قولاً من الكذب لأخذناه بقوة منا.

وقال مقاتل: لانتقمنا منه بالحق فاليمين بمعنى الحق كقوله تعالى: {قَالُوۤاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ} أي من قبل الحق.

وقرىء «ولو تقول» على البناء للمفعول {فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ} أي فليس منكم أيها الناس أحد يمنعنا عن محمداً وعن عقابه، {وَإِنَّهُ} أي القرآن {لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} لأنهم المنتفعون به، {وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم} أيها الناس {مُّكَذِّبِينَ} بالقرآن بسبب حب الدنيا فنجازيهم على تكذيبهم، {وَإِنَّهُ} أي القرآن {لَحَسْرَةٌ} أي ندامة {عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ} عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين يوم القيامة، وكذا في دار الدنيا إذا رأوا دولة المؤمنين.

قال مقاتل: أي وإن تكذيبهم بالقرآن لحسرة عليهم، {وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ} أي وإن القرآن لحق يقين إنه كلامي نزل به جبريل على رسول كريم. ويقال: وإن الحسرة على الكافرين يوم القيامة حق يقين، {فَسَبِّحْ

بِ ٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ} أي اذكر توحيد ربك العظيم تنزيهاً له عن الرضا بنسبة ما هو بريء منه وشكراً على ما جعلك أهلاً لإيحائه إليك.

سورة المعارج

وتسمى سورة سأل سائل. مكية، أربع وأربعون آية، ومائتان وست عشرة كلمة، وثمانمائة وأحد وستون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِّنَ ٱللَّهِ} أي طلب طالب عذاباً هو واقع بالكافرين في الدنيا والآخرة ليس لذلك العذاب من يدفعه عنهم من جهة الله تعالى، لأنه إذا أوجبت الحكمة وقوعه امتنع أن لا يفعله الله.

قال ابن عباس: هو النضر بن الحارث حيث قال انكاراً واستهزاءً: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم، فقتل يوم بدر صبراً هو وعقبة ابن أبي معيط. وقال الربيع: هو أبو جهل حيث قال: أسقط علينا كسفاً من السماء. وقيل: وهو الحارث بن النعمان الفهري وذلك أنه لما بلغه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في علي رضي الله عنه: «من كنت مولاه فعلي مولاه»، قال: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة م ن السماء، فما لبث حتى رماه الله تعالى بحجر، فوقع على دماغه، فخرج من دبره، فمات من ساعته، فنزلت هذه الآية.

وقال الحسن وقتادة: لما بعث الله محمداً وخوف المشركين بالعذاب قال المشركون بعضهم لبعض: سلوا محمد لمن هذا العذاب، وبمن يقع؟ فأخبره الله عنهم بقوله: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ} أي عن عذاب، فعلى هذا فقوله تعالى: {سَأَلَ سَائِلٌ} حكاية لسؤالهم المعتاد على طريقه قوله تعالى: {يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ} (الأعراف: 781) وقوله تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ} (يس: 84).

قال أبو السعود: ولعل هذا القول أقرب وقرأ نافع وابن عامر «سال» بألف محضة.

وقرأ ابن عباس: «سال سيل بعذاب واقع للكافرين» أي اندفع عليهم واد من أودية جهنم بعذاب واقع، وهذا قول زيد بن ثابت وعبد الرحمن بن زيد. وقرأ أبي «على الكافرين». {ذِي ٱلْمَعَارِجِ} أي ذي السموات فهو خالقها كما قاله ابن عباس، وسميت معارج، لأن الملائكة يعرجون فيها.

وقال قتادة أي ذي الفواضل والنعم وهي تصل إلى الناس على مراتب مختلفة. وقيل: أي ذي الدرجات التي يعطيها أولياءه في الجنة، {تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰئِكَةُ وَٱلرُّوحُ} وهو جبريل {إِلَيْهِ} أي إلى انتهاء موضع كرامته تعالى وهو الموضع الذي لا يجري لأحد سواه تعالى فيه حكم. وقيل: إلى عرشه.

وقرأ الكسائي «يعرج» بالياء التحتية {فِى يَوْمٍ} من أيامكم {كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} من سني الدنيا أي يقطعون في يوم ما يقطعه الإنسان إلى خمسين ألف سنة لو فرض ذلك. وقال وهب: ما بين أسفل

العالم إلى أعلى شرفات العرش مسيرة خمسين ألف سنة ومن أعلى السماء الدنيا إلى الأرض مسيرة ألف سنة، لأن عرض كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وما بين أسفل السماء إلى قرار الأرض خمسمائة أخرى.

وقال محمد بن إسحاق: لو سار بنو آدم من الدنيا إلى موضع العرش ساروا خمسين ألف سنة. وقوله تعالى: {فِى يَوْمٍ} متعلق بتعرج كما عليه الأكثرون.

وقال مقاتل: هو متعلق ب «واقع» وقيل: متعلق ب «سال» بغير همزة وهو الذي من السيلان، وعلى هذا فالمراد بذلك اليوم يوم القيامة، والمراد أن موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سني الدنيا، ثم يستقر أهل النار في دركات النيران. قال بعضهم: وهذه المدة واقعة في الآخرة لكن على سبيل التقدير، والمعنى: لو اشتغل بتلك الحكومة والمحاسبة أعقل الخلق وأذكاهم لبقي فيه خمسين ألف سنة، ثم إنه تعالى يتمم ذلك القضاء والحساب في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا، {فَٱصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً} أي فاصبر صبراً بلا جزع على استهزاء النضر وأمثاله بك، وعلى تكذيب الوحي، وعلى تعنت كفار مكة في السؤال عليك، فهذا متعلق بقوله تعالى: {سَأَلَ} ومن قرأ «سال» بألف محضة فمعناه جاء العذاب لقرب وقوعه، فاصبر، فقد جاء وقت الانتقام، {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً} أي إن الكفار يستبعدون اليوم الذي كان مقداره خمسين ألف سنة من الإمكان على جهة الإحالة، ونعلمه قريباً من الإمكان هيناً في قدرتنا غير متعذر علينا، ويقال: إن كفار مكة يعتقدون العذاب غير واقع يوم القيامة، ونعلمه واقعاً لا بد من وقوعه، وهذا تعليل للأمر بالصبر، {يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ} أي تصير السماء كدردي الزيت، وهذا الظرف متعلق ب «ليس له دافع» أو بما في معناه كيقع، أي يقع العذاب يوم تكون إلخ، أو متعلق ب «قريباً» إذا كان الضمير في نراه للعذاب، {وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ} أي تصير الجبال كالصوف المصبوغ ألواناً، وإنما وقع التشبيه به، لأن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، فإذا بست وطيرت في الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح، {وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً} أي لا يسأل قريب قريبه عن أحواله كيف حالك، ولا يكلمه، لأن لكل أحد ما يشغله عن هذا الكلام، أو لا يسأل حميم عن حميمه ليتعرف شأنه من جهته فلا يقال: لحميم أين حميمك؟ {يُبَصَّرُونَهُمْ} أي يعرف الحميم الحميم حتى يعرفه وهو مع ذلك لا يسأله عن شأنه لشغله بنفسه.

وقرىء «يبصرونهم» أي يرونهم ولا يعرفونهم اشتغالاً بأنفسهم، {يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِوَصَٰحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـأْوِيهِ وَمَن فِى ٱلأَرْضِ جَمِيعاً}، أي يتمنى المشرك أن يفدي نفسه من عذاب يوم القيامة بأولاده وزوجته وأخيه، وأقاربه الأقربين الذين فصل عنهم، وينتهي إليهم التي تضمه في النسب وتحميه في النوائب ومن في الأرض جميعاً من الخلائق وقرأ نافع والكسائي «يومئذ» بفتح الميم على البناء لإضافة يوم إلى مبني. والباقون بكسرها على الإعراب على الأصل في الاسماء. وقرىء «من عذاب يومئذ» بتنوين «عذاب» ونصب «يومئذ» ب «عذاب»

لأنه في معنى تعذيب، {ثُمَّ يُنجِيهِ} معطوف على يفتدي، أي يتمنى الكافر أن يفتدي نفسه بهذه الأشياء ثم أن ينجيه ذلك الافتداء، {كَلاَّ} وهذا هنا إما بمعنى حقاً، فحينئذ كان الوقف على «ينجيه» وهو وقف تام. وإما بمعنى لا فحينئذ كان الوقف على «كلا» وهو وقف تام، وهذا أولى، ولا يجمع بينهما في الوقف بل الوقف في أحدهما فقط أي لا ينفعه ذلك الافتداء ولا ينجيه من العذاب، {إِنَّهَا لَظَىٰ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ}.

وقرأ حفص بالنصب على الاختصاص، أو على حال مؤكدة، والكناية عائدة على النار لدلالة لفظ العذاب عليها، وقرأ الباقون بالرفع فتجعل الكناية حرف عماد و «لظى» اسم «إن» و «نزاعة» خبرها، كأنه قيل: إن لظى نزاعة، أو تجعل ضمير القصة وهو اسم إن و «لظى» مبتدأ و «نزاعة» خبراً، والجملة خبر عن «إن» والتقدير: أن القصة لظى نزاعة للشوى أي قلاعة للأعضاء التي في أطراف الجسد، ثم تعود كما كانت وهكذا أبداً فلا تترك لحماً ولا جلداً إلا أحرقته.

{تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ} عن الطاعة {وَتَوَلَّىٰ} عن الإيمان {وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ} أي جمع المال فجعله في وعاء ولم يؤد حقوقه، أي إن النار تدعوهم بلسان الحال أو أن الله تعالى يخلق الكلام في جرم النار حتى تقول صريحاً: إلي يا كافر إلي يا منافق، ثم تلتقطهم الحب فقوله تعالى: أدبر وتولى، إشارة إلى الإعراض عن معرفة الله تعالى وطاعته وقوله: {وَجُمِعَ} إشارة إلى الحرص وقوله: {فَأَوْعَى} إشارة إلى طول الأمل وهذه مجامع آفات الدين. {إِنَّ ٱلإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعاً} أي جبل جبلة هو فيها قلة الصبر وشدة الحرص {إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعاً}، أي إذا أصابه الفقر والمرض ونحوهما صار جازعاً شاكياً، وإذا أصابه السعة والصحة صار مانع المعروف شحيحاً بماله، غير ملتفت إلى الناس، وإنما ذم الله الإنسان على ذلك، لأنه قاصر النظر عن الأحوال الجسمانية العاجلة، فالواجب عليه أن يكون مشغولاً بأحوال الآخرة، فإذا وقف في مرض أو فقر كان راضياً به لعلمه أنه فعل الله تعالى، وإذا وجد المال والصحة صرفهما إلى طلب السعادات الآخروية، {إِلاَّ ٱلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاَتِهِمْ دَآئِمُونَ} بأن لا يتركوها في وقت من الأوقات ولا يشغلهم عنا شاغل، {وَٱلَّذِينَ فِيۤ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ} أي نصيب معين يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله تعالى وإشفاقاً على الناس، {لِّلسَّآئِلِ} أي الذي يسأل {وَٱلْمَحْرُومِ} أي الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنياً، فيحرم، {وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ} حيث يتعبون أنفسهم في الطاعات البدنية والمالية طمعاً في التوبة الآخروية، فيستدل بذلك على تصديقهم بيوم الجزاء، {وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ} أي خائفون على أنفسهم مع مالهم من الأعمال الفاضلة استعظاماً لجنابه تعالى واستقصاراً لأعمالهم الحسنة. {إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ} فلا ينبغي لأحد أن يأمن عذابه تعالى وإن بالغ في الطاعة، {وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَٰجِهِمْ} أي الأربع {أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ} من الولائد بغير عدد، {فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} بالاستمتاع بهن {فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ} أي فمن، طلب لنفسه وراء ما ذكر من الأزواج والمملوكات، {فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ} أي المجاوزون للحدود، فدخل في هذا

حرمة وطء الذكور والبهائم والزنا، {وَٱلَّذِينَ هُمْ لأَمَٰنَٰتِهِمْ} أي لما ائتمنوا عليه من أمر الدين والدنيا، {وَعَهْدِهِمْ} فيما بينهم وبين ربهم أو فيما بينهم وبين الناس {رَٰعُونَ}، أي حافظون بالوفاء.

وقرأ ابن كثير «لأمانتهم» بالإفراد. {وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَٰدَٰتِهِم قَآئِمُونَ}. وقرأ حفص بألف بعد الدال على الجمع. والباقون على التوحيد، أي يقومون بالشهادات بالحق عند الحكام ولا يكتمونها، وهذا الشهادات من جملة الأمانات إلا أنه تعالى خصها من بينها إظهاراً لفضلها، لأن في إقامتها إحياء الحقوق، وفي تركها تضييعها.

وروى عطاء عن ابن عباس قال: والمراد الشهادة بأن الله واحد لا شريك له، {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ} أي يهتمون بحالها حتى يؤتى بها على أكمل الوجوه {أُوْلَٰئِكَ} أي الموصوفون بتلك الصفات الثمانية {فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ} بالثواب والتحف {فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ} أي أيّ شيء ثبت لكفار مكة مسرعين جهتك، مادي أعناقهم إليك، مقبلين بأبصارهم عليك {عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ}، أي مجتمعين فهذه الأربعة أحوال من الموصول.

روي أن المشركين كانوا يحتفون حول النبي صلى الله عليه وسلم حلقاً حلقاً وفرقاً فرقاً يستمعون منه ويستهزئون بكلامه ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد: فلندخلنها قبلهم فنزلت هذه الآية، {أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِىءٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ} كما يدخلها المسلمون {كَلاَّ} أي لا يكون ما طمعوا فيه أصلاً، لأن ذلك تمن فارغ {إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ} وهو النطفة المذرة فمن أين يتشرفون ويدعون التقدم؟ ويقولون: لندخلن الجنة قبلهم فكيف يليق دخولهم الجنة لو لم يتصفوا بالإيمان والمعرفة؟

{فَلاَ أُقْسِمُ}، أي إذا كان الأمر كما ذكر من أنا خلقناهم مما يعلمون فأقسم {بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ} أي مشارق الشتاء والصيف، {وَٱلْمَغَٰرِبِ} أي مغارب الشتاء والصيف فلمشرق الشتاء والصيف مائة وثمانون منزلاً، وكذلك للمغربين {إِنَّا لَقَٰدِرُونَعَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ}، أي بطريق الإهلاك ولم يحصل ذلك وإنما هدد الله تعالى القوم بهذا لكي يؤمنوا {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} أي بعاجزين على أن نبدل خيراً منهم، وليس تأخير عقابهم لعجز بل لحكمة داعية إليه، {فَذَرْهُمْ} أي اتركهم فيما هم فيه من الأباطيل {يَخُوضُواْ} في باطلهم، {وَيَلْعَبُواْ} في دنياهم، أو يهزأوا في كفرهم {حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ} وهو يوم البعث عند النفخة الثانية، {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلأَجْدَاثِ} أي القبور بدل من يومهم بدل كل من كل. وقرىء «يخرجون» على البناء للمفعول {سِرَاعاً} إلى جهة صوت الداعي {كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ}. وقرأه ابن عامر وحفص بضم النون والصاد وهي التي تنصب فتعبد من دون الله تعالى، والباقون بفتح النون وإسكان الصاد، وهي رواية وقرأ أبو عمران الجوني ومجاهد بفتحتين أي منصوب كالعلم. وقرأ الحسن وقتادة بضمة فسكون وهو الصنم المنصوب للعبادة {يُوفِضُونَ} أي يسرعون {خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ} فلا يرفعونها ولا يرون خيراً {تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ} أي يعلوهم سواد الوجوه، {ذَٰلِكَ} أي وقوع الأحوال الهائلة {ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ} في الدنيا إن لهم فيه العذاب، وهذا هو العذاب الذي سألوا عنه.

سورة نوح

مكية، ثمان وعشرون آية، ومائتان وأربع وعشرون كلمة، وتسعمائة وتسعمائة وعشرون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ} وكانوا جميع أهل الأرض أهل عصره {أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ} وأن حرف مصدري والمعنى: أرسلناه بأن قلنا له: «أنـذر» أي أرسلناه بالأمر بالإنذار، ويجوز أن تكون مفسرة. وقرأ ابن مسـعود «أنـذر» بغير«أن» على إرادة القول والتقدير: أنا أرسلناه وقلنا له: أنذر، {مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} على ما هم عليه من الأعمال الخبيثـة، فلمـا جـاءهم {قَالَ يٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} أي موضح لحقيقـة الأمـر بلغـة تعلمونهـا، {أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ} فالأمر بالعبادة يتناول جميع الواجبات والمندوبات من أفعال القلوب وأفعال الجـوارح، والأمـر بـالتقوى، ويتنـاول الزجـر عـن جميع المحظورات والمكروهات، {وَأَطِيعُـونِ} فـالأمر بطاعـة نـوح يتنـاول أداء جميع المأمورات وترك جميع المنهيات، {يَغْفِـرْ لَكُـمْ مِّـن ذُنُـوبِكُمْ} أي بعض ذنوبكم وهو ما سلف فـي الجاهليـة فالإسـلام يجبـه، {وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَـىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى} أي إلى أمد قدره الله تعالى لهم بشـرط الإيمـان أي إن اللـه قضى على قوم نوح مثلاً إن آمنوا عمرهم اللـه ألـف سـنة، وإن بقـوا علـى كفرهم أهلكهم الله على رأس تسـعمائة سـنة، {إِنَّ أَجَـلَ ٱللَّـهِ} أي إن مـا قدر الله لكم على تقدير بقائكم على الكفر {إِذَا جَآءَ} وأنتـم علـى مـا أنتـم عليه من الكفر {لاَ يُؤَخَّرُ} فبادروا إلى الإيمان والطاعـة قبـل مجيئـه، {لَـوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} شيئاً لسارعتم إلى ما أمرتكم به، فلما أيس نـوح منهـم بعـد ما دعاهم ألـف سـنة إلا خمسـين عامـاً، فلـم يؤمنـوا ولـم يقبلـوا نصـيحته. {قَـالَ} أي نـوح: {رَبِّ إِنِّـى دَعَـوْتُ قَـوْمِى} إلـى الإيمـان والطاعـة {لَيْلاً وَنَهَاراً} أي دائماً، من غير فتور {فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِ إِلاَّ فِرَاراً} مما دعـوتهم إليه {وَإِنِّى كُلَّمَـا دَعَـوْتُهُمْ} إلـى الإيمـان والتوبـة {لِتَغْفِـرَ لَهُـمْ} بسـببهما، {جَعَلُوۤاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىۤ ءَاذَانِهِـمْ} أي سـدوا مسـامعهم لكيلاً يسـمعوا دعـوتي {وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ} أي غطوا رؤوسهم بثيابهم لكي لا يسـمعوا صـوتي ولا يرونـي، {وَأَصَـرُّواْ} علـى الكفـر والمعاصـي {وَٱسْتَكْبَرُواْ} عـن الإيمـان والتوبة {ٱسْتِكْبَاراً} عظيماً بالغاً إلى النهاية القصوى، {ثُـمَّ إِنِّـى دَعَـوْتُهُمْ} إلـى التوحيـد والتوبـة {جِهَـاراً} أي بـأعلى صـوتي، {ثُـمَّ إِنِّىۤ أَعْلَنْـتُ لَهُـمْ وَأَسْـرَرْتُ لَهُـمْ إِسْـرَاراً}، فمراتـب دعـوة نـوح عليـه السـلام ثلاثـة فبـدأ بالمناصحة في السر، فجازوه بالأمور الأربعة، ثم ثنى بالمجاهرة، وهي أشد من الإسرار، ثم جمع بين الإعلان والإسرار والجمع بينهما أغلظ من الإفـراد {فَقُلْتُ} لهم: {ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ} بالتوبة عن الكفر والمعاصي {إِنَّـهُ كَـانَ غَفَّاراً} في حـق كـل مـن اسـتغفره {يُرْسِـلِ ٱلسَّـمَآءَ عَلَيْكُـمْ مِّـدْرَاراً} أي مطراً دائماً، {وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ}، أي يعطكم أموالاً إبلاً وبقـراً وغنمـاً وبنين ذكوراً وإناثاً، {وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ} أي بسـاتين {وَيَجْعَـل لَّكُـمْ أَنْهَـاراً} تجري لمنافعكم.

{وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً}، أي والحال أن الله خلقكم على حالات شتى نطفاً، ثم علقاً ثم مضغاً ثم خلقكم عظاماً ولحماً، ثم أنشأكم خلقاً آخر وهو إلقاء الروح فيه ويقال: والحال أنه تعالى خلقكم أصنافاً مختلفين يخالف بعضكم بعضاً، {أَلَمْ تَرَوْاْ} أي ألم تخبروا يا كفار مكة {كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقاً} أي متوازية بعضها فوق بعض مثل القبة، ملتزقة أطرافها، {وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً} أي منوراً لوجه الأرض في ظلمة الليل ونسبته للكل مع أنه في السماء الدنيا، لأن كل واحدة من سبع سموات شفافة لا يحجب ما وراءها، فيرى الكل كأنها سماء واحدة، {وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجاً} يزيل الظلمة ويبصر أهل الدنيا في ضوئها وجه الأرض، كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره. {وَٱللَّهُ أَنبَتَكُمْ مِّنَ ٱلأَرْضِ نَبَاتاً} أي أنبتكم من الأرض، فنبتم نباتاً عجيباً، والمعنى: والله أنشأكم منها فنشأتم نشأة عجيبة، فإنه تعالى إنما يخلقنا من النطف وهي متولدة من الأغذية المتولدة من النبات، المتولد من الأرض {ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا} بالدفن عند موتكم، {وَيُخْرِجُكُمْ} منها عند البعث والحشر، {إِخْرَاجاً} محققاً لا ريب فيه، {وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ بِسَاطاً} تتقلبون عليها تقلبكم على بسطكم في بيوتكم {لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً} أي لتأخذوا فيها طرقاً واسعة.

{قَالَ نُوحٌ} مناجياً له تعالى: {رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي} فيما أمرتهم به من التوحيد والتوبة، {وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً} وهم رؤساؤهم الذين يدعونهم إلى الكفر. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم «ولده» بفتح الواو واللام. والباقون بضم الواو وإسكان اللام {وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً} معطوف على صلة من أي واتبعوا من مكروا إلخ، أي كأن الرؤساء قالوا لأتباعهم: إن آلهتكم خير من إله نوح، لأن آلهتكم يعطونكم المال والولد، وإله نوح لا يعطيه شيئاً، لأنه فقير فبهذا المكر صرفوهم عن طاعة نوح أو قالوا لأتباعهم هذه الأصنام آلهة لكم، وكانت آلهة لآبائكم فلو قبلتم قول نوح لاعترفتم على أنفسكم بأنكم كنتم جاهلين ضالين وعلى آبائكم بأنهم كانوا كذلك. وهذه الإشارة صارفة لهم عن الدين وقرأ العامة كباراً بضم الكاف وتشديد الباء.

وقرأ عيسى وأبو السماك وابن محيصن بالضم والتخفيف. وقرأ زيد بن علي وابن محيصن أيضاً بكسر الكاف وتخفيف الباء. {وَقَالُواْ} أي الرؤساء للسفلة معطوف على الصلة أيضاً، أي واتبعوا من قالوا: {لاَ تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ} أي لا تتركوا عبادتها إلى عبادة رب نوح، {وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً} أي ولا تتركن عبادة هؤلاء. وقرأ نافع «وداً» بضم الواو والباقون بفتحها وقرأ العامة «يغوث ويعوق» بغير تنوين للعلمية والوزن، أو للعلمية والعجمة. وقرأهما الأعمش مصروفين للتناسب أو على لغة من يصرف غير المنصرف مطلقاً ولعل هذه الأسماء الخمسة أسماء أولاد آدم، فلما ماتوا قال إبليس لمن بعدهم: لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم ففعلوا فلما مات أولئك قال لمن بعدهم: إنهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم حتى بعث الله نوحاً عليه السلام، ولهذا السبب نهى الرسول عن زيارة القبور أولاً، ثم أذن فيها وقال: كنت نهيتكم عن زيارة

القبور ألا فزوروها فإن زيارتها تذكرة، {وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً} معطوف على صلة من أي واتبعوا من قد أضلوا خلقاً كثيراً وهم الرؤساء، أو الأصنام أجريت مجرى الآدميين كقوله تعالى: {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ}. {وَلاَ تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ} أي المشركين {إِلاَّ ضَلَالاً} أي عذاباً أو ضلالاً في أمر دنياهم، وهذا معطوف على قوله تعالى: {رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِىٰ} على حكاية كلام نوح بعد «قال»، وبعد «الواو» النائبة عنه، قالوا: وليست من كلام نوح لئلا يعطف الإنشاء على الإخبار لكن الظاهر أن المراد بالأخبار طلب للنصرة عليهم، فيجوز أن تكون الواو من كلام نوح، أي قال نوح: رب إنهم عصوني وقد عجزت وأيست عنهم فانصرني عليهم وقال: لا تزد الظالمين إلا ضلالاً،

{مِّمَّا خَطِيۤئَٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ} و «ما» صلة و «من» تعليلية أي من أجل خطيئاتهم وبسببها أغرقوا بالطوفان لا بسبب آخر، وقرأ أبو عمرو «خطاياهم». وقرأ ابن مسعود «من خطيئاتهم ما أغرقوا» فأخَّر كلمة «ما» فعلى هذه القراءة ف «ما» مع ما بعده في تقدير المصدر. وقرىء «خطياتهم» بقلب الهمزة ياء وإدغام الياء فيها. وقرىء «خطيئتهم» بالتوحيد على إرادة الجنس، أو إرادة الكفر فقط والخطيئات والخطايا كلاهما جمع خطيئة إلا أن الأول جمع سلامة، والثاني جميع تكسير {فَأُدْخِلُواْ نَاراً} في القبر فإن عذاب القبر عقب الإغراق وإن كانوا في الماء، لأن الفاء تدل على أن إدخالهم في النار حصل عقب الإغراق فلا يمكن حمل النار على عذاب جهنم في الآخرة.

قال الضحاك: إنهم كانوا في حالة واحدة يغرقون من جانب ويحرقون في الماء من جانب بقدرة الله تعالى، {فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُمْ مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَاراً}. وهذا تعريض بأنهم إنما واظبوا على عبادة الأصنام لتكون دافعة للآفات عنهم جالبة للمنافع إليهم، فلما جاءهم عذاب الله لم ينتفعوا بتلك الأصنام، وما قدرت هي على دفع عذاب الله تعالى عنهم. {وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى ٱلأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّاراً} أي أحداً {إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ} عن دينك من آمن بك ومن أراد أن يؤمن بك، {وَلاَ يَلِدُوۤاْ إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً} أي إلا من سيفجر ويكفر، {رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ} أي أبوي لمك وشمخا بنت أنوش، فإنهما كانا مؤمنين وأخرج ابن أبي حاتم أن المراد: والده وجده، فاسم أبيه لمك واسم جده متوشلخ بفتح الميم وتشديد المثناة الفوقية المضمومة بعدها واو ساكنة وفتح الشين المعجمة واللام بعدها خاء معجمة.

وقرأ الحسن بن علي رضي الله عنهما، ويحيى ابن يعمر والنخعي ولولدي، أي ابني سام وحام. وقرأ ابن جبير والجحدري ولوالدي بكسر الدال، أي أبي فيحتمل أن يريد عليه السلام أباه الأقرب الذي ولده وأن يريد جميع من ولده، من لدن آدم إلى من ولده وكان بينه وبين آدم عشرة آباء ولم يكن منهم كافر كما قاله عطاء، {وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ} أي منزلي، أو مسجدي أو سفينتي. وقيل: لمن دخل دخولاً مع تصديق القلب {مُؤْمِناً} خرجت بهذا القيد امرأته وابنه كنعان، {وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ} الذين يكونون من بعدي إلى يوم القيامة {وَلاَ تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ} أي الكافرين {إِلاَّ تَبَاراً} أي إلاّ هلاكاً فاستجاب الله دعاءه عليه السلام فأهلكهم بالكلية.

سورة الجن

وتسمى قل أوحى. مكية، هي ثمان وعشرون آية ومائتان وخمس وثمانون كلمة. وثمانمائة وسبعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{قُلْ} يا أشرف الخلق: {أُوحِىَ إِلَىَّ} وقرأ أبو عمرو في رواية يونس وهارون وحي بضم الواو بغير ألف. وقرىء «أحـي» بـالهمزة مـن غيـر واو، أي أنزل إلي جبريل فأخبرني {أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَـرٌ مِّـنَ ٱلْجِـنِّ}، أي أن الشأن استمع القرآن تسعة نفر من جـن نصـيبين بـاليمن، {فَقَـالُوۤاْ} بعـدما آمنـوا ورجعوا إلى قومهم: يا قومنا {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانَاً} أي كتاباً مقروءاً {عَجَباً}، أي خارجاً عن عادة أمثاله من الكتب الإلهية مبايناً لكلام الناس فـي حسـن النظم ودقة المعنى {يَهْدِى إِلَى ٱلرُّشْدِ} أي إلى الصواب وهو لا إله إلا الله، {فَأامَنَّا بِهِ} أي بذلك القـرآن، أو بالرشـد الـذي فـي القـرآن وهـو التوحيـد {وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَداً} ولن نعود إلى ما كنا عليه مـن الإشـراك بـه وذكـر الحسن أن منهم يهوداً ونصارى ومجوساً ومشركين، {وَأَنَّهُ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَـا} أي وأن الحديث ارتفع عظمة ربنا، أي عظـم سـلطانه، أو ارتفـع غنـاه، أي وصفه بالاستغناء عن الزوجـة والولـد، أو تعـالى حقيقتـه عـن جميـع جهـات التعلق بالغير.

وقرىء «جد ربنا» بكسر الجيم أي تعـالى صـدق ربـوبيته عـن اتخـاذ الصاحبة والولد. وقرىء «جداً ربنا» بنصب «جداً» على التمييـز {مَـا ٱتَّخَـذَ صَٰـحِبَةً وَلاَ وَلَـداً}. هـذه الجملـة مفسـرة لمـا قبلهـا وبعضـهم جعـل «مـا» مصدرية متعلقة بتعالى، فحينئذ تكون «لا» زائـدة، أي تعـالى صـفة ربنـا مـا اتخـذ زوجـة وولـداً كمـا نسـبه الكفـار، {وَأَنَّـهُ} أي الحـديث {كَـانَ يَقُـولُ سَفِيهُنَا} أي جاهل منا وهو إبليس {عَلَـى ٱللَّـهِ شَـطَطاً} أي قـولاً مجـاوزاً للحد بعيداً عن الصدق وهو وصفة تعالى بإثبات الشريك والصـاحبة والولـد، {وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً} أي كنـا نظـن أنـه لـن يكذب على الله تعـالى أحـد أبـداً، ولـذلك اتبعنـا قـوله. وهـذا اعتـذار منهـم تقليدهم لسفيههم إبليس، {وَأَنَّهُ} أي الحديث {كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلإِنسِ} في الجاهلية {يَعُوذُونَ} أي يلتجئـون {بِرِجَـالٍ مِّـنَ ٱلْجِـنِّ فَزَادوهُـمْ رَهَقـاً} أي ظلماً وذلك أنهم إذا سافروا سفراً، أو اصطادوا صيداً، أو نزلوا واديـاً خـافوا من الجن لأنها تعبث بهم في بعض الأحيان فقالوا: نعـوذ بسـيد هـذا الـوادي من شر سفهاء قومه، فيأمنون بذلك ولا يرون إلا خيراً فتزيد الجـن والإنـس إضلالهم حتى استعاذوا بهم، {وَأَنَّهُمْ} أي الإنس {ظَنُّـواْ كَمَـا ظَنَنتُـمْ} أيهـا الجن {أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَـداً} بعـد المـوت أو أنـه لـن يبعـث اللـه أحـداً للرسالة على ما هو مذهب البراهمة، {وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّـمَآءَ فَوَجَـدْنَٰهَا مُلِئَـتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً} وأنا قبل أن آمنـا طلبنـا بلـوغ السـماء لاسـتماع كلام أهلها فصادفناها قد ملئت من جهة الحراس الأقويـاء، وهـم الملائكـة الـذين يمنعون من الاستماع ومن شعل منقضة من نار الكواكب، {وَأَنَّا كُنَّـا} قبـل معبـث محمـد {نَقْعُـدُ مِنْهَـا} أي السـماء {مَقَٰعِـدَ} خاليـة مـن الحـرس

{لِلسَّمْعِ} أي لأجل الاستماع، {فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ} أي بعد مبعث محمد في مقعد من المقاعد {يَجِدْ لَهُ} أي لأجله {شِهَاباً رَّصَداً} أي شهاباً قد أرصد له ليرجم به، {وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً} أي وأنا لا نعلم أشر أريد بمن في الأرض حين منعنا عن الاستماع، أم أراد بهم ربهم خيراً، أي ولما سمعوا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم علموا أنهم منعوا من صعود السماء حراسة للوحي،

{وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ} أي المتقون، {وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ} أي ومنا قوم غير صالحين {كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَداً}. أي كنا قبل هذا ذوي مذاهب مختلفة.

قال السدي: الجن أمثالكم فيهم مرجئة، وقدرية، وروافض، وخوارج {وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ} أي وأنا علمنا الآن أن الشأن لن نعجز الله أينما كنا من أقطار الأرض، {وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً} أي هاربين من الأرض إلى السماء، فليس لنا مهرب إلا في قبضته، {وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰ} أي القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم {ءَامَنَّا بِهِ} أي بالقرآن، {فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً}، أي فمن يؤمن بربه فهو لا يخاف نقصاً في جزاء حسناته، ولا ظلماً بزيادة جزاء سيئاته، وهذا دليل على أن من حق من آمن بالله تعالى أن يجتنب المظالم. وقرأ الأعمش «فلا يخف»، {وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ} أي وأنا بعد سماع القرآن مختلفون، فمنا المخلصون في صفة الإسلام، ومنا المائلون عن طريق الحق، {فَمَنْ أَسْلَمَ} أي أخلص بالتوحيد {فَأُوْلَٰئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَداً} أي وقصدوا طريق صواب،

{وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ} أي المائلون عن سنن الإسلام، {فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً}. والجن وإن خلقوا من النار توقد نار جهنم بهم، كما توقد بكفرة الإنس فإن النار القوية تأكل النار الضعيفة. وقيل: ههنا آخر كلام الجن، {وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ} و «أن» مخففة من الثقيلة، والجملة معطوفة على أنه استمع والمعنى وأوحى إلى أن الحديث لو استقام الجن والإنس {عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ} أي على ملة الإسلام {لأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقاً} أي ولوسعنا عليهم الرزق. وقرأ الأعمش بضم واو لو تشبيهاً بواو الضمير، {لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} أي في ذلك الماء الذي هو كناية عن العيش الواسع فإن من آمن بالله فأنعم الله عليه كان ذلك الإنعام اختباراً حتى يظهر أنه هل يشتغل بالشكر أم لا؟ وهل ينفق تلك النعم في طلب مراضي الله أو في مراضي الشيطان؟ {وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ} أي عن طاعته وعن كتاب ربه القرآن {يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً} أي يدخله في عذاب شديد. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بالياء التحتية لإعادة الضمير على الله. والباقون بالنون.

روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن «صعداً» جبل في جهنم وهو صخرة ملساء، أو نحاس، فيكلف الكافر صعودها، ثم يجذب من أمامه بسلاسل ويضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها في أربعين سنة، فإذا أعلاها جذب إلى أسفلها، ثم يكلف الصعود مرة أخرى فهذا دأبه أبداً، {وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ} أي وأوحي إلي أن المساجد لله {فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَداً}، أي فلا تعبدوا مع الله أحد أحداً غيره، والمراد بالمساجد البيوت التي تبنيها أهل الملل للعبادة، فيدخل فيها الكنائس والبيع، ومساجد المسلمين،

وذلك أن أهل الكتاب يشركون في صلاتهم في البيع والكنـائس، فـأمر اللـه المسلمين بالتوحيد والإخلاص،

{وَأَنَّهُ} أي وأوحى إلى أن الحديث {لَّمَا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَـدْعُوهُ كَـادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً}، أي لما قام النبي يعبد الله لصلاة الفجر ببطن نخـل كـاد الجن يزدحمون عليـه مـتراكمين تعجبـاً ممـا رأوا مـن عبـادته ومـن اقتـداء أصحابه به قائماً، وراكعاً، وساجداً وإعجاباً بما تلا من القرآن، لأنهـم رأوا مـا لم يروا مثله، وسمعوا ما لم يسمعوا مثله، وقرأ نافع وشعبة بكسـر الهمـزة على الاسـتئناف بنـاء علـى أن هـذا مـن كلام الجـن لا مـن جملـة المـوحى، والمعنى: وأنـه لمـا أقـام النـبي يعبـد اللـه وحـده مخالفـاً للمشـركين فـي عبادتهم الأوثان كاد المشـركون يزدحمـون عليـه مـتراكمين ليبطلـوا الحـق الذي جاء به ويطفئوا نور الله، فأبى الله إلا أن ينصره على من عاداه، وقـرأ هشام «لبداً» بضم اللام. والباقون بكسرها.

واعلم أن «أن» المشددة في هذه السورة ستة عشرة، ثنتان منها يجب فيهما الفتح «أنه استمع» و «أن المساجد لله». وواحدة يجب فيهـا الكسـر «إنا سمعنا». وثلاثة عشر يجوز فيها الوجهان فالاثنتا عشرة فتحها الأخـوان وابن عامر، وحفص، وكسرها الباقون وهي: و «أنه تعالى جد ربنـا» و «أنـه كان يقول» و «أنا ظننا»، و «أنه كان رجال» و «أنهم ظنوا»، و «أنا لمسـنا السماء»، و «أنا منا» و «أنا لا ندري»، و «أنا منا الصالحون» و «أنـا ظننـا» و «أنا لما سمعنا»، و «أنا منا المسلمون». والواحدة كسرها ابن عامر وأبو بكر، وفتحها الباقون وهي: و «أنه لما قام عبد الله» {قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُـو رَبِّـى} أي أعبده وأدعو الخلق إليه، {وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً} أي ولا أشرك بربـي فـي العبادة أحداً. قرأ العامة «قال» على الغيبـة. وقـرأ عاصـم وحمـزة «قـل» ليكون نظير لما بعده، وسبب نزول هذه الآية أن كفـار قريـش قـالوا للنـبي صلى الله عليه وسلم: إنك جئـت بـأمر عظيـم، وقـد عـاديت النـاس كلهـم، فارجع عن هذا، ونحن نجيرك. فنزلت. وهذا حجة لعاصم وحمزة، ومن قـرأ «قال» حمل ذلك على أن القوم لما قالوا ذلك أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «إنما أدعو ربي»، فحكى الله ذلك عنه بقـوله قـال: أو يكـون ذلك من بقية حكاية الجن أحوال الرسول لقومهم، {قُلْ} يا أشرف الخلـق لهؤلاء الذين خالفوك: {إِنِّى لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً}، أي إنـي لا أقـدر أن أدفع عنكم ضراً وكفراً، ولا أسـوق إليكـم نفعـاً ولا هـدى. وقيـل: الضـر الموت، والرشد الحياة. ومعنى الكلام أن النافع والضار، والمرشد والمغوي هو الله وأن أحداً من الخلق لا قدرة له عليـه، وقـرأ أبـيّ «غيـاً ولا رشـداً». {قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ} إن عصيته {وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً} أي ملجأ، وموضع الاختفاء إن أرادني بضـر، {إِلاَّ بَلاَغـاً مِّـنَ ٱللَّـهِ وَرِسَـٰلَـٰتِهِ}. وهذا استثناء من قوله: {لا أَمْلِكُ} وقـوله: {وَرِسَـٰلَـٰتِهِ} عطـف علـى بلاغـاً ومن الله صفته لا صلته، أي لا أملك لكم إلا تبليغاً كائناً منه تعالى ورسـالاته التي أرسلني بها، {وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ} في الأمر بالتوحيـد {فَـإِنَّ لَـهُ نَارَ جَهَنَّمَ} العامة على كسر همزة إن لأن ما بعد فاء الجزاء موضـع ابتـداء، ولذلك حمل سيبويه ومن عاد فينتقم الله منه، ومن كفر فأمتعه، ومن يؤمن بربه فلا يخاف، على أن المبتدأ فيها مضمر. وقرأ طلحة بفتحها على أنها مع

ما في حيزها في تأويل مصدر واقع خبراً لمبتدأ مضمر تقديره: فجـزاؤه أن له نار جهنم، أو فحكمه أن له نار جهنم كقـوله تعـالى: {فَأَنَّ لِلَّـهِ خُمُسَـهُ} (الأنفال: 14) أي فحكمه أن لله خمسه، {خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَداً} بلا نهاية {حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ} من فنون العـذاب فـي الآخـرة {فَسَـيَعْلَمُونَ} حينئـذ {مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً}، أي أعواناً، فهناك يظهـر أن القـوة والعـدد في جانب المؤمنين، أو في جانب الكفار، {قُلْ إِنْ أَدْرِيۤ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَـدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّيۤ أَمَداً}، أي أجلاً بعيداً لما سمع المشركون ذلك قال النضـر بن الحرث إنكاراً له واستهزاءً به: مـتى يكـون ذلـك الموعـود؟ فـأنزل اللـه تعالى هـذه الآيـة: {قُـلْ} لمـن تعجلـوا بالعـذاب {مَـا أَدْرِى} فـإن وقـوعه متيقن، أما وقت وقوعه فغير معلوم، {عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ} خبر مبتدأ محذوف، أي هو عالم بنزول العذاب. وقرىء بالنصب على المـدح. وقـرأ السـدي «علـم الغيب» بصيغة الماضي ونصب «الغيب»، {فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِـهِ أَحَـداً} أي لا يطلع الله على غيبه اطلاعاً كاملاً ينكشف به جليـة الحـال انكشـافاً تامـاً موجباً لعين اليقين أحداً من خلقـه، {إِلاَّ مَـنِ ٱرْتَضَـىٰ مِـن رَّسُـولٍ}، أي إلا رسولاً ارتضاه لاطلاعه على بعض غيوبه المتعلقـة برسالته. وقـرأ الحسـن «يظهر» بفتح الياء والهاء و «أحد» فاعل بـه، {فَـإِنَّهُ يَسْـلُكُ مِـن بَيْـنِ يَـدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً} أي فإن الله تعالى يجعل من جميع جوانب ذلك الرسـول عند اطلاعه على غيبه حرساً من الملائكة يحفظونه من الجن لئلا يسـتمعوا قراءة جبريل، فيلقوها إلى النكهة قبل الرسول، حتى يبلغ جبريل ما أطلعـه الله عليه من بعض الغيوب. وقال مقاتل وغيره: كان اللـه إذا بعـث رسـولاً أتاه إبليس في صورة ملك يخبره، فيبعـث اللـه مـن بيـن يـديه ومـن خلفـه رصداً من الملائكة يحرسونه ويطردون الشياطين عنه، فإذا جـاءه شـيطان في صورة ملك أخبروه بأنه شيطان، فيحذره، فإذا جاءه ملك قالوا له: هـذا رسول ربك {لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ} واللام متعلق ب «يسـلك»، وضمير «أبلغوا» إما للرصد فالمعنى أنه تعالى يسلكهم مـن جميـع جـوانب المرتضى ليعلم الله أن الشأن قد أبلـغ الرصـد رسـالات ربهـم سـالمة عـن الاختطاف والتخليط علماً حاصلاً بالفعل، وإما لمن ارتضى فالمعنى: ليعلم أنه قد أبلغ الرسل الموحي إليهم رسالات ربهم إلى أممهم كما هي من غير اختطاف ولا تخليط بعدما أبلغها الرصد إليهم كـذلك، {وَأَحَـاطَ بِمَـا لَـدَيْهِمْ} حال من فاعل «يسلك»، أي يسلكهم ليترتب على السلك علمه تعـالى بمـا ذكر والحال أنه تعالى قد أحاط بما عند الرصد، أو عند الرسل مـن الأحـوال جميعاً، {وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ} مما كان وما سيكون {عَدَداً} أي فـرداً فـرداً. وهو تمييز منقول من المفعول به. وقرىء «ليعلم» بالبناء للمفعول.

سورة المزمل

وهي عشرون آية، مائتان وخمس وثمانون كلمة، ثمانمائة وثمانية وثلاثون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{يٰأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ} خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم تهجيناً لما كان عليه من الحالة حيث كان صلى الله عليه وسلم متلففاً بقطيفة، مستعد للنوم كما يفعله من لا يهمه أمر، فأمر بأن يترك التزمل إلى التشمر للعبادة، والهجود إلى التهجد. وقرىء «يأيها المتزمل». {قُمِ ٱلَّيْلَ} أي قم إلى صلاة الليل {إِلاَّ قَلِيلاًنِّصْفَهُ} بدل من الليل، {أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً} أي أو انقص القيام من النصف نقصاً قليلاً إلى نصف النصف، {أَوْ زِدْ عَلَيْهِ} أي أو زد القيام على النصف إلى الثلثين، {وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً} أي بين القرآن في أثناء القيام تبييناً بأن يبين جميع الحروف، ويوفي حقها {إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً}، أي سنوحي قرآناً منطوياً على تكاليف شاقة على المكلفين، {إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْأً} بفتح الواو وسكون الطاء عند الجمهور. وقرأ قتادة وشبل بكسر الواو وسكون الطاء، والمعنى: أن قيام الليل بالصلاة هي أشد نشاطاً وثبات قدم.

وقرأ أبو عمرو وابن عامر «وطاء» بكسر الواو وفتح الطاء، أي موافقة للخشوع والإخلاص {وَأَقْوَمُ قِيلاً} أي أصوب قراءة، وأحسن لفظاً من النهار لسكون الأصوات، {إِنَّ لَكَ} يا سيد الرسل {فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحَاً طَوِيلاً}، أي تقلباً طويلاً في مهماتك فلا تتفرغ لخدمة الله إلا بالليل. وقرىء «سبخاً» بالخاء المنقطة من فوق، أي تفرق قلب بالشواغل ويقال المعنى: إن فاتك من الليل شيء فلك في النهار فراغ فاصرفه إليه، {وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ} أي دم على ذكر اسم ربك ليلاً ونهاراً على أيّ وجه كان من تسبيح وتهليل، وتحميد، ودعاء، وصلاة، وقراءة قرآن، ودراسة علم.

قال سهل: أي قل بسم الله الرحمن الرحيم في ابتداء قراءتك توصلك ببركة قراءتها إلى ربك وتقطعك عما سواه اه. أي سواء قرأت في الصلاة أو في خارجها، وهذا إذا قرأ من أول سورة، وأما إذا قرأ من أثناء سورة فإنه إن كان في غير الصلاة سن له أن يبسمل وإن كان فيها لم تسن له البسملة، لأن قراءة السورة بعد الفاتحة تعد قراءة واحدة، {وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً} أي انقطع إلى الله تعالى عن الدنيا بإخلاص العبادة،

{رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَ ٱلْمَغْرِبِ}.

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بالجر على البدل من ربك، أو على القسم بإضمار حرف القسم، وعند ابن عباس، لكن قراءته «رب المشارق والمغارب». والباقون بالرفع على المدح وهو خبر مبتدأ محذوف والتقدير: هو أو على الابتداء وخبره جملة، {لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ فَ ٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً} فالإنسان في مبدأ السير يكون طالباً للحصة فيكون تبتله إلى الله تعالى بسبب كونه مبدأ للتكميل ثم في آخر السير يترقى عن طلب الحصة فيكون في هذه الحالة بسبب كونه كاملاً فقوله: {رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَ ٱلْمَغْرِبِ} إشارة إلى الحالة الأولى التي هي أول درجات المتبتلين. وقوله: {لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ} إشارة إلى الحالة الثانية التي هي منتهى درجات المتبتلين. وقوله: {فَ ٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً} إشارة إلى مقدم التفويض وهو أن يرفع الاختيار ويفوض الأمر بالكلية إليه تعالى، فإن أراد الله أن يجعله متبتلاً رضي بالتبتل، وإن أراد له عدم التبتل رضي الله به لا من حيث ذلك بل من حيث ذلك مراد الله تعالى وهٰهنا آخر

الدرجات، {وَ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ} مما لا خير فيه فمن أراد المخالطة مع الخلق فلا بد له من الصبر الكثير، {وَ ٱهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً} بأن يجانبهم بقلبه ويخالفهم في الأفعال مع المداراة، وترك المكافأة وهذا هو الأخذ بإذن الله فيما يكون أدعى إلى القبول فلا يأتي النسخ بمثله، {وَذَرْنِى وَ ٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى ٱلنَّعْمَةِ} أي اتركني وأرباب التنعم وكل أمرهم إلي، وهم صناديد قريش، وهذا بفتح النون فهو بمعنى الترفه، إما بكسرها فهي بمعنى الأنعام وإما بضمها فهي بمعنى المسرة، {وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً} أي زماناً قليلاً أيام الحياة الدنيا فقتلوا ببدر، {إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً} أي إن لهم عندنا في الآخرة أموراً مضادة لتنعمهم قيوداً تقيد بها أرجلهم وأغلالاً تغل بها إيمانهم إلى أعناقهم وسلاسل توضع في أعناقهم، {وَجَحِيماً} أي ناراً عظيمة يدخلونها {وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ}، أي تمسك في الحلوق وهو الزقوم والضريع {وَعَذَاباً أَلِيماً} وهو أنواع العذاب {يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلأَرْضُ وَ ٱلْجِبَالُ} متعلق بالاستقرار الذي تعلق به لدينا، أي استقر لهم عندنا ما ذكر يوم تزلزل الأرض وأوتادها، وقرأ زيد بن علي «ترجف» مبنياً للمفعول، {وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً}، أي وصارت الجبال تراباً متناثراً بعضه على بعض لرخاوته، وسمي الكثيب كثيباً، لأن ترابه دقاق، {إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ} يا أهل مكة {رَسُولاً} محمداً صلى الله عليه وسلم {شَٰهِداً عَلَيْكُمْ} أي يشهد يوم القيامة بما صدر عنكم من الكفر التكذيب، {كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ} ملك مصر {رَسُولاً} وهو موسى عليه السلام {فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ} الذي أرسلناه إليه، {فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذاً وَبِيلاً} أي فعاقبناه عقوبة شديدة وهي الغرق {فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيباً} أي فكيف تقون أنفسكم إن بقيتم على الكفر في الدنيا عذاب يوم يصير ذلك اليوم الولدان شمطاً، إذا سمعوا حيث يقول الله لآدم: ابعث بعثاً من ذريتك إلى النار. قال آدم: يا رب، من كم؟ قال الله تعالى: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة. وقرأ زيد بن علي «يوم يجعل» بإضافة الظرف للجملة والفاعل ضمير راجع إلى الله تعالى، أي فكيف لكم يا أهل مكة بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا، {السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ}، أي منشق بذلك اليوم لشدة هوله وهذه الجملة صفة ثانية ل «يوماً» وقرىء «متفطر» أي متشقق، {كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً} والمصدر إما مضاف للمفعول أي كان وعد ذلك اليوم مفعولاً، أي كان الوعد المسند إلى ذلك اليوم واجب الوقوع، لأن حكمة الله تعالى وعلمه يقتضيان إيقاعه، وإما مضاف إلى الفاعل أي كان وعد الله لمجيء ذلك اليوم واقعاً لا محالة، لأنه تعالى منزه عن الكذب، {إِنَّ هَٰذِهِ} أي الآيات {تَذْكِرَةٌ} أي موعظة مشتملة على أنواع الإرشاد {فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً} أي فمن شاء النجاة اشتغل بالطاعة واحترز عن المعصية، فإن ذلك هو المنهاج الموصل إلى مرضاته تعالى، {إِنَّ رَبَّكَ} يا أشرف الخلق {يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ}.

قرأهما ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي بنصبهما معطوفين على «أدنى»، أي أنك تقوم أقل من الثلثين وتقوم النصف والثلث. والباقون بجرهما معطوفين على «ثلثي الليل»، أي تقوم أقل من ثلثي الليل وأقل

من النصف والثلث، {وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ} معطوف على ضمير «تقوم»، أي ويقوم معك جماعة من أصحابك، {وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ} فلا يعلم مقادير أجزاء الليل والنهار إلا الله تعالى {عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ}، أي علم الله إن الحديث لن تقدروا على تقدير الأوقات، ولن تستطيعوا ضبط الساعات أبداً، فالضمير عائد إلى مصدر الفعل، أي علم أنه لا يمكنكم إحصاء مقدار كل واحد من أجزاء الليل والنهار على الحقيقة، ولا يمكنكم تحصيل تلك المقادير على سبيل الظن إلا مع المشقة التامة {فَتَابَ عَلَيْكُمْ} أي فرجع الله بكم إلى ترخيص ترك القيام المقدر، {فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ} أي فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل ولو ركعتين. والصحيح أن أول ما فرض عليه صلى الله عليه وسلم بعد الدعاء إلى التوحيد: التهجد على التخيير المذكور أول السورة فعسر عليهم القيام به، فنسخ بما تيسر من التهجد، ثم نسخ بإيجاب الصلوات الخمس ليلة الإسراء إلى بيت المقدس، {عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ} أي علم الله أنه سيوجد منكم مرضى لا يستطيعون الصلاة بالليل {وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ}، أي وسيوجد آخرون يسافرون في الأرض يطلبون رزق الله يشق عليهم صلاة الليل، {وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ} أي وسيوجد آخرون يجاهدون في طاعة الله، فلو لم يناموا في الليل لتوالت أسباب المشقة عليهم، لأنهم مشتغلون في النهار بالأعمال الشاقة {فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}، أي فصلوا ما تيسر لكم من التهجد. وهذا تأكيد للأول، فالأول مفرع على قوله تعالى: {عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ} إلخ. وهذا مفرع على قوله: {عَلِمَ أَن سَيَكُونُ} إلخ فكل واحد من المؤكد والمؤكد مفرع على حكمة {وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ} أي المفروضة {وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ} أي أعطوا زكاة أموالكم {وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً} بأن تنفقوا سائر الإنفاقات في سبيل الخيرات عن طيب قلب {وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ} أي خير كان من عبادات البدن والمال {تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً} من الذي تؤخرونه إلى الوصية عند الموت كما قاله ابن عباس.

وقرأ أبو السمال «هو خير وأعظم أجراً» بالرفع على الابتداء والخبر، {وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ} في كافة أحوالكم فإن الإنسان لا يخلو من تفريط {إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ} لجميع الذنوب {رَّحِيمٌ} للمؤمنين.

سورة المدَّثِّر

ست وخمسون آية، مائتان وخمس وخمسون كلمة، ألف وعشرة أحرف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{يٰأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ} أي يا من لبس الدثار وهو ما يلبس فوق الشعار الذي يلي الجسد.

روى جابر بن عبد الله أنه صلى الله عليه وسلم قال: «كنت على جبل حراء فنوديت: يا محمد، إنك رسول الله، فنظرت عن يميني ويساري فلم أر

شيئاً، فنظرت فوقي، فرأيت الملك قاعداً على عرش بين السماء والأرض، فخفت، ورجعت إلى خديجة فقلت: دثروني دثروني وصبوا علي ماء بارداً فنزل عليه السلام فقال: {رَّحِيمٌ يأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ}».

وعن الزهري: إن أول ما نزل سورة: { ٱقْرَأْ} (العلق: 1) إلى قوله تعالى: {مَا لَمْ يَعْلَمْ} (العلق: 5)، ثم انقطع الوحي، فحزن رسول الله وجعل يعلو شواهق الجبال، فأتاه جبريل عليه السلام وقال: إنك نبي الله، فرجع إلى خديجة فقال: «دثروني وصبوا علي ماءً بارداً» فنزل جبريل فقال: {رَّحِيمٌ يأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ}. {قُمْ فَأَنذِرْ} أي قم من مضجعك، فحذر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} أي عظم ربك مما يقوله عبدة الأوثان، {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} عن النجاسات ويقال: و «ثيابك فقصر»، لأن العرب كانوا يطولون ثيابهم ويجرون أذيالهم، فكانت ثيابهم تتنجس، ولأن تطويل الذيل إنما يفعل للخيلاء والتكبير، فنهى الرسول عن ذلك.

وقال أكثر المفسرين: أي وقلبك فطهر عن الصفات المذمومة. وقال الحسن: وخلقك فحسن، {وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ}.

قرأ عاصم في رواية حفص بضم الراء في هذه السورة، وقرأ الباقون وعاصم في رواية أبي بكر بالكسر. قال أبو العالية: «الرجز» بضم الراء: الصنم، وبالكسر النجاسة والمعصية.

وقال ابن عباس: أي المأتم فاترك ولا تقربنه أي دم على تركه، {وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ} مرفوع منصوب المحل على الحال، أي ولا تعط طالباً للكثير، {وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ}.

روي أن الكفار لما اجتمعوا وبحثوا عن حال محمد صلى الله عليه وسلم قام الوليد ودخل داره، فقال القوم: إن الوليد قد صبا، فدخل عليه أبو جهل وقال: إن قريشاً جمعوا لك مالاً حتى لا تترك دين آبائك، فهو لأجل ذلك المال بقي على كفره، فقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم: إن الوليد بقي على دينه الباطل لأجل المال، وأما أنت فاصبر على دينك الحق لأجل رضا الحق، لا لشيء غيره، وهذا الأمر كله تعريض بالمشركين كأنه قيل لرسول الله: وربك فكبر، لا الأوثان، وثيابك فطهر ولا تكن كالمشركين فهم نجس البدن والثياب، والرجز فاهجر ولا تقربه كما تقربه الكفار، ولا تمنن تستكثر كما أراد الكفار أن يعطوا الوليد قدراً من المال، وكانوا يستكثرون ذلك القليل، أي كانوا رائين لما يعطونه كثيراً، ولربك فاصبر على هذه الطاعات لا للأعراض العاجلة من المال والجاه، {فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ} أي فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فوقت النقر يوم إذ نقر يوم عسير على الكل من المؤمنين والكافرين، كما روي أن الأنبياء يومئذ يفزعون، وأن الولدان يشيبون إلا أنه يكون هول الكفار فيه أشد وذلك قوله تعالى.

{عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} وعلى المؤمنين يسير، {ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً} منصوب على الذم والتقدير: أعني وحيداً أو حال من العائد المحذوف، أي اتركني ومن خلقته منفرد، أي بلا أب فهو زنيم، أو منفرداً في الشرارة وهو الوليد بن المغيرة المخزومي، لأنه كان يزعم أنه وحيد قومه لرياسته ويساره وتقدمه في الدنيا، وكان يلقب بالوحيد وكان يقول:

أنا الوحيد ابن الوحيد ليس لي في العرب نظير ولا لأبي نظير، {وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً} أي مبسوطاً.

قال ابن عباس: هو ما كان للوليد بمكة والطائف من الإبل والبقرة، والغنم، والحجور، والجنان، والعبيد، والجواري.

وقال مقاتل: كان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره شتاء ولا صيفاً، {وَبَنِينَ} ثلاثة عشر كما قاله أبو مالك وسعيد بن جبير، أسلم منهم ثلاثة: خالد وهو سيف الله وسيف رسوله وهشام وعمارة، {شُهُوداً} أي حضوراً معه بمكة لا يفارقونه ألبتة لأنهم كانوا أغنياء، {وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً} أي وبسطت له الجاه والرياسة في قومه حتى لقب ريحانة قريش ووحيداً، {ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ} على ما أوتيه. قيل: إنه كان يقول: إن كان محمد صادقاً فما خلقت الجنة الأولى {كَلاَّ}، أي لا تكون له زيادة على ذلك أصلاً فليرتدع من هذا الطمع، فلم يزل الوليد بعد قوله تعالى: {كَلاَّ} في نقصان ماله حتى افتقر ومات فقيراً، {إِنَّهُ} أي الوليد بن المغيرة {كَانَ لآيَٰتِنَا} الدالة على التوحيد والقدرة والعدل، وصحة النبوة، وصحة البعث {عَنِيداً} أي راداً وهو يعرفها بقلبه وينكرها بلسانه، وكفر المعاند أفحش أنواع الكفر {سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً} أي سأكلفه مشقة من العذاب. وعن النبي صلى الله عليه وسلم يكلف أن يصعد عقبة في النار كلما وضع يده عليها ذابت، فإذا رفعها عادت وإذا وضع رجله ذابت، فإذا رفعها عادت وعنه صلى الله عليه وسلم الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً، ثم يهوي فيه كذلك أبداً، {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ} أي إن العنيد فكر ماذا يقول في شأن القرآن وقدر في نفسه ما يقوله، {فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} أي فلعن في دنياه على أي كيفية أوقع تقديره، {ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} أي ثم لعن فيما بعد الموت في البرزخ والقيامة على أي حال كان تقديره، وهذا تعجيب من قوة خاطره، {ثُمَّ نَظَرَ} في ذلك المقدر في القرآن مرة بعد مرة {ثُمَّ عَبَسَ} أي قطب وجهه لما لم يجد فيه مطعناً، ولم يدر ماذا يقول، {وَبَسَرَ} أي قبض جبينه، {ثُمَّ أَدْبَرَ} عن الحق {وَ ٱسْتَكْبَرَ} أي تعظم عن اتباعه، {فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ} أي ما هذا الذي يقوله محمد إلا سحر ينقل عن أهل بابل،

{إِنْ هَٰذَآ إِلاَّ قَوْلُ ٱلْبَشَرِ} أي ما هذا الذي أتى به محمد إلا قول البشر جبر ويسار.

روي أن الوليد مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ {حم} السجدة، فلما وصل إلى قوله تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً عَادٍ وَثَمُودَ} (فصلت: 31) أنشده الوليد بالله وبالرحم أن يسكت، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال لهم: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وأنه يعلو ولا يعلى عليه، ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش: صبا الوليد ولو صبا لصبأت قريش كلها، فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكموه، ثم دخل عليه محزوناً فقال: ما لك يا بن أخي؟ فقال: إنك قد صبوت لتصيب من طعام محمد وأصحابه، وهذه قريش تجمع لك مالاً ليكون ذلك عوضاً مما تقدر أن تأخذ من أصحاب محمد. فقال: والله ما يشبعون فكيف أقدر أن آخذ منهم مالا

ولكني تفكرت في أمره كثيراً فلا أجد شيئاً يليق به إلا أنه ساحر، ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم: تزعمون أن محمد مجنون فهل رأيتموه يخنق قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهن؟ فقالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطي شعراً قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ قالوا: اللهم لا ثم قالوا: فما هو؟ ففكر، فقال: ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، وما الذي يقوله إلا سحر يأثره عن أهل بابل، فارتج النادي فرحاً وتفرقوا معجبين بقوله، متعجبين منه، فلما أقر الوليد بذلك في أول الأمر علمنا أن الذي قاله في الآخر من أن القرآن سحر وقول البشر إنما ذكره على سبيل العناد لا على سبيل الاعتقاد، فإن السحر يتعلق بالجن، {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} أي سأدخله في الطبقة السادسة من جهنم المسماة بسقر {وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ} أي أيّ شيء أعلمك ما هي في وصفها، {لاَ تُبْقِى وَلاَ تَذَرُ} أي لا تبقي من الدم واللحم والعظم شيئاً إلا أكلته، فإذا أعيدوا خلقاً جديداً فلا تذر أن تعاود إحراقهم بأشد مما كانت، وهكذا أبداً، وهذه رواية عطاء عن ابن عباس. {لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ} أي ظاهرة للبشر من مسيرة خمسمائة عام. وقرأ الحسن وابن أبي عبلة وزيد بن علي، وعطية «لواحة» بالنصب على الاختصاص، أو على الحال المؤكدة، أي مغيرة للأبشار {عَلَيْهَا} أي النار، {تِسْعَةَ عَشَرَ} ملكاً.

وحكى الواحدي عن المفسرين أن خزنة النار تسعة عشر مالك ومعه ثمانية عشر، أعينهم كالبرق، وأنيابهم كالصياصي، وأشعارهم تمس أقدامهم، يخرج لهب النار من أفواههم ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة يسع كف أحدهم مثل ربيعة ومضر، نزعت منه الرحمة والرأفة، يأخذ أحدهم سبعين ألفاً في كفه، ويرميهم حيث أراد من جهنم، وحكمة هذا العدد أن أبواب جهنم سبعة، فستة منها للكفار، وواحد للفساق، ثم إن الكفار يدخلون النار لأمور ثلاثة: ترك الاعتقاد، وترك الإقرار، وترك العمل، فيكون لكل باب من تلك الأبواب الستة ثلاثة، والمجموع ثمانية عشر، وأما باب الفساق فليس هناك زبانية بسبب ترك الاعتقاد ولا بسبب ترك القول بل بسبب ترك العمل فقط، فلا يكون على بابهم إلا زبانية واحدة، فالمجموع تسعة عشر. ويقال: إن الساعات أربعة وعشرون وخمسة منها مشغولة بالصلوات الخمسة، فيبقى منها تسعة عشر مشغولة بغير العبادة، فحقاً صار عدد الزبانية تسعة عشر،

{وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ} أي القائمين بتعذيب أهل النار، {إِلاَّ مَلَٰئِكَةً} فلا تقاس الملائكة بالسجانين. روي أنه لما نزل قوله تعالى: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}، قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم. قال ابن أبي كبشة: إن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الشجعان أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي: أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفوني أنتم اثنين، فنزلت وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة، أي ما جعلناهم رجالاً من جنسكم فتغالبونهم، {وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ} فإنهم يقولون: هذا العدد القليل كيف يكونون وافين بتعذيب أكثر العالم من الجن والإنس من أول ما خلق الله تعالى إلى قيام القيامة،

{لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ} لأن هذا العدد موجود في التوراة والإنجيل، فلما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم على وفق ذلك من غير سابقة تعلم، علموا أن ذلك حصل بسبب الوحي من السماء، فالذين آمنوا بمحمد استيقنوا أن ذلك العدد هو الصدق. {وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰناً} بما رأوا من تصديق أهل الكتاب ذلك، وعلموا أن في كتابنا مثل ما في التوراة، {وَلاَ يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ} مثل عبد الله بن سلام وأصحابه، إذ لم يكن العدد خلاف ما في كتابهم، {وَٱلْمُؤْمِنُونَ} لانضمام إيمانهم بذلك إلى إيمانهم بسائر ما أنزل، {وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}، أي شك في صدق القرآن {وَٱلْكَٰفِرُونَ} القاطعون بكذبه: {مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلاً} أي أيّ شيء أراد الله بهذا العدد القليل حال كونه عدداً عجيباً {كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ} أي يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء بهذا المثل إضلالاً وهداية كائنين مثل ما ذكر من الإضلال والهداية، {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ} أي إن الخزنة تسعة عشر ولهم جنود من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، خلقوا لتعذيب أهل النار {وَمَا هِىَ} أي سقر {إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ}، أي إلا عظة للخلق ليتذكروا كمال قدرة الله تعالى وأنه لا يحتاج إلى أعوان. {كَلاَّ} أي حقاً أو تنبهوا إلى ما سيلقى إليكم. {وَٱلْقَمَرِ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ}.

قرأ نافع وحفص وحمزة بسكون الذال المعجمة، والدال المهملة، وبينهما همزة مفتوحة، أي وقت ذهب. والباقون بفتح الذال المعجمة والدال بينهما ألف. أي إذا جاء. {وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ} أي أضاء.

وقرأ عيسى بن الفضل، وابن السميقيع سفر ثلاثياً، أي طرح الظلمة {إِنَّهَا لإِحْدَى ٱلْكُبَرِ} أي إن سقر لإحدى دركات جهنم {نَذِيراً لِّلْبَشَرِ} تمييز من «إحدى» أي إنها لإحدى الدواهي انذاراً للبشر وفي قراءة أبي نذير بالرفع {لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ} وقوله تعالى: {لِمَن شَاء} بدل من قوله تعالى: {لِّلْبَشَرِ} أي نذير لمن شاء منكم أن يسبق إلى الخير فيهديه الله تعالى، أو يتأخر عن خير فيضله الله، {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} أي كل نفس مرهونة عند الله بكسبها غير مفكوكة، {إِلاَّ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ} فإنهم فاكون رقابهم بأعمالهم الحسنة كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق، {فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ} أي يسأل أصحاب اليمين حال كونهم في جنات الكافرين عن أحوالهم حال كونهم في النار قائلين، {مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ} أي أيّ شيء أدخلكم في هذه الدركة من النار، {قَالُواْ} مجيبين للسائلين: {لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ} الصلوات الواجبة {وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ} أي لم نك نعطي المسكين ما يجب علينا إعطاؤه له كنذر وكفارة وزكاة، {وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ} أي نشرع في الباطل مع الشارعين فيه، {وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ} أي بيوم الجزاء {حَتَّىٰ أَتَٰنَا ٱلْيَقِينُ}، أي الموت، أي إنا بقينا على إنكار القيامة إلى وقت الموت قال تعالى: {فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ} أي لا تنالهم شفاعة الملائكة والأنبياء والصالحين، {فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ}، أي فأي شيء حصل لهم معرضين عن القرآن {كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ}.

قرأ نافع وابن عامر بفتح الفاء، أي مذعورة ذعرها القناص. والباقون بكسرها أي نافرة من صوت الناس، أو من ظلمة الليل {فَرَّتْ} أي الحمر {مِن قَسْوَرَةٍ} أي أسد سمي بذلك لأنه يقهر السباع، {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِىءٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفاً مُّنَشَّرَةً} أي طرية لم تطو بأن تأتيهم وقت كتابتها، فإن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا: يا محمد لن نؤمن بك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه من رب العالمين، إلا فلان ابن فلان ونؤمر فيه باتباعك. وعن ابن عباس كانوا يقولون: إن كان محمداً صادقاً فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءته من النار، {كَلاَّ} أي لا يؤتون الصحف فلا تقترحوا ذلك، {بَل لاَّ يَخَافُونَ ٱلآخِرَةَ} في زمن من الأزمان، فلذلك يعرضون عن التذكرة {كَلاَّ} أي حقاً {إِنَّهُ} أي القرآن، {تَذْكِرَةٌ} أي عظمة عظيمة من الله توجب اتباعه، {فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ} أي فمن شاء أن يتعظ بالقرآن اتعظ به وجعله نصب عينيه، {وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ} أي ولا يذكرون في حال من الأحوال إلا حال أن يشاء الله ذلك. وقرأ نافع بتاء الخطاب. وقرىء بالياء والتاء مشدداً {هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ} أي هو حقيق بأن يتقيه عباده، ويطيعوه وحقيق بأن يغفر لهم ما سلف من كفرهم إذا آمنوا وأطاعوا.

سورة القيامة

مكية، تسع وثلاثون آية، ومائة وسبع وتسعون كلمة، وستمائة واثنان وخمسون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ وَلاَ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ} أي النفوس الشريفة التي لا تزال تلوم نفسها في الدنيا والآخرة، فإذا اجتهدت في الطاعة تلوم نفسها على عدم الزيادة، وإذا قصرت تلوم نفسها على التقصير والمعنى: لا أقسم عليك بذلك اليوم ولا بتلك النفس، ولكني أسألك غير مقسم أتحسب أنا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت، فإن كنت تحسب ذلك فاعلم أنا قادرون على أن نفعل ذلك وذلك قوله تعالى: {أَيَحْسَبُ ٱلإِنسَانُ} أي المكذب بالبعث، {أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ} أي أن الحديث لن نقدر على أن نجمع عظامه بعد تفريقها. وقرأ قتادة «أن لن تجمع عظامه» على البناء للمفعول.

روي أن عدي بن أبي ربيعة ختن الأخنس بن شريق قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا محمد حدثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمره، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد، ولم أومن بك، أو يجمع الله العظام بعد صيرورتها تراباً، فنزلت هذه الآية.

وقال ابن عباس: المراد بالإنسان هٰهنا أبو جهل فإنه أنكر البعث بعد الموت. قال تعالى في جوابه: {بَلَىٰ} فهذه الكلمة أثبتت ما بعد النفي وهو الجمع أي بلى نجمعها والوقف هنا تام. وقال أبو عمرو: كافٍ {قَٰدِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُ} أي كنا قادرين أن نخلق أطراف أصابعه في الابتداء،

فوجب أن نبقى قادرين على الإعادة في الانتهاء. وقرأ ابن أبي عبلة «قادرون» بالرفع، أي ونحن قادرون. {بَلْ يُرِيدُ ٱلإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ} أي بل يريد الإنسان أن يكذب بيوم القيامة، وهو أمامه فمن كذب حقاً كان فاجراً، {يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ} أي يسأل الإنسان سؤال متعنت ومستبعد متى يوم القيامة، {فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ}.

قرأ نافع بفتح الراء أي شخص البصر عند معاينة أسباب الموت والملائكة. والباقون بالكسر أي تحير البصر فزعاً فلم يطرف. وقرأ أبو السمال «بلق» بمعنى انفتح، {وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ} أي ذهب ضوءه.

وقرىء و «خسف القمر» على البناء للمفعول، أي ذهب بنفسه، {وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَ ٱلْقَمَرُ} بأن يطلعهما الله تعالى من المغرب، {يَقُولُ ٱلإِنسَٰنُ} المنكر للقيامة {يَوْمَئِذٍ} أي إذا عاين هذه الأحوال: {أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ} أي أين الفرار من النار، وقرىء بكسر الفاء، أي أين موضع الفرار؟ {كَلاَّ} أي حقاً أو لا تتمن الفرار، {لاَ وَزَرَ} أي لا ملجأ، أي فلا جبل يواريه من النار {إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ}، أي موضع قرارهم يوم إذ كانت هذه الأمور مفوضة إلى مشيئته تعالى، فإنه تعالى يدخل من يشاء الجنة، ومن يشاء النار، {يُنَبَّأُ ٱلإِنسَٰنُ يَوْمَئِذِ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} أي يخبر كل امرىء عند وزن الأعمال بما عمل وبما ترك من عمل خيراً كان، أوشراً {بَلِ ٱلإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ}، أي بل هو يومئذ عالم بتفاصيل أحواله، شاهد على نفسه، لأن جوارحه تنطق بذلك، {وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ} أي ولو جاء بكل معذرة يمكن أن يعتذر بها عن نفسه، فإنه لا ينفعه ذلك، لأنه شاهد على نفسه {لاَ تُحَرِّكْ بِهِ} أي بالقرآن {لِسَانَكَ} قبل فراغ جبريل من قراءته عليك {لِتَعْجَلَ بِهِ}، أي لتأخذه على عجلة مخافة أن تنساه

{إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ} في صدرك {وَقُرْءَانَهُۥ} أي إثبات قراءته في لسانك، {فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ} أي أتممنا قراءته، عليك بلسان جبريل {فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ} أي فاقرأ أنت بعد فراغنا من قراءته أي لا ينبغي أن تكون قراءتك مقارنة لقراء جبريل، فإذا سكت جبريل فاشرع أنت في القراءة، {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ} أي بيان ما أشكل عليك من معاليه وأحكامه على سبيل التفضل، {كَلاَّ} أي لا تعجل يا أشرف الخلق وكن على أناة {بَلْ} أنتم يا بني آدم، لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه تعجلون في كل شيء، ولذلك {تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ} أي الدنيا، {وَتَذَرُونَ ٱلأَخِرَةَ}.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بياء الغيبة، أي إنهم يحبون العمل للدنيا ويتركون العمل لثواب الآخرة، {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} ف «وجوه» مبتدأ و «ناضرة» نعت له، ويومئذ منصوب ب «ناضرة» و «ناظرة» خبره، و «إلى ربها» متعلق بالخبر والمعنى: أن الوجوه الحسنة يوم القيامة وهي وجوه المؤمنين ناظرة إلى الله تعالى لا يحجبون عنه، {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ} أي ووجوه شديدة العبوس يوم القيامة وهي وجوه الكفرة، توقن أن يفعل بها أنواع العذاب في النار، {كَلاَّ} أي تنبهوا لما أمامكم من الموت الذي ينقطع عنده المحبة بينكم وبين الدنيا، {إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَوَقِيلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ وَ ٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ} أي إذا بلغت الروح أعالي الصدر،

وهي العظام المكتنفة بثغرة النحر عن يمين وشمال، وقال: من حول المشرف على الموت على سبيل الطلب، أو على سبيل الإنكار من ينجيه مما هو فيه، وهل من طبيب فيداويه أو قال ملك الموت للملائكة: أيكم يرقى بروحه إلى السماء؟ وأيقن ذلك المحتضر أن ما نزل به فراق الدنيا واتصلت شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة، فقد انقطعت عنه أحكام الدنيا ويساق في ذلك اليوم إلى حكم الله تعالى إذ إليه مرجع الخلائق، {فَلاَ صَدَّقَ} وهو معطوف على قوله تعالى: {يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ}.

قال مجاهد وغيره: نزلت هذه الآيات في أبي جهل، أي فهو ما صدق بالدين، {وَلاَ صَلَّىٰ} أي ما صلى أبو جهل صلاة شرعية، {وَلَٰكِن كَذَّبَ} ما يجب تصديقه من الرسول والقرآن، {وَتَوَلَّىٰ} أي أعرض عن الطاعة، {ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ} أي يتمدد ويختال في مشيته، لأن المتبختر يمد خطاه، فاستقبله النبي صلى الله عليه وسلم، فأخذه، فهزه هزة أو هزتين وقال له: {أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ}، أي ويل لك يا أبا جهل وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكرهه، {ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ}، أي وعيداً لك يا أبا جهل، احذر يا أبا جهل فقد قرب منك ما لا قبل لك به من المكروه.

وقال القاضي: المعنى: بعداً لك، بعداً لك، أي بعداً في أمر دنياك، وبعداً في أمر أخراك.

قال قتادة ومقاتل: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد أبي جهل بالبطحاء وقال له: «أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى». فقال أبو جهل بأيّ شيء تهددني يا محمد؟ فوالله لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئاً، وإني والله لأعز أهل هذا الوادي، وأعز من مشى بين جبليها. ثم انسل ذاهباً. فأنزل الله تعالى مثل ذلك: {أَيَحْسَبُ ٱلإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى} أي مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يكلف في الدنيا، ولا يحاسب بعمله في الآخرة، {أَلَمْ يَكُ} أي الإنسان {نُطْفَةً} أي ماء قليلاً في صلب الرجل، وترائب المرأة {مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ} أي يصب في الرحم، {ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً} أي ثم صار المني دماً عبيطاً بقدرة الله تعالى، {ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً}، أي فنفخ الله في ذلك الإنسان الروح فكمل أعضاءه. وهذا قول ابن عباس ومقاتل، {فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ} أي فجعل الله من الإنسان الصنفين {ٱلذَّكَرَ وَٱلأُنثَىٰ}، يجتمعان تارة في الرحم، وينفرد كل منهما عن الآخر تارة، وكان لأبي جهل ابن اسمه عكرمة وبنت إسمها جويرية. {أَلَيْسَ ذَلِكَ} الذي أنشأ هذه الأشياء {بِقَٰدِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِىَ ٱلْمَوْتَىٰ} للبعث، فالإعادة أهون من البدء في قياس العقل.

روي أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه السورة قال: «سبحانك اللهم بلى». رواه أبو داود والحاكم.

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من قرأ {سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلأَعْلَىٰ} (الأعلى: 1) إماماً كان أو غيره فليقل سبحان ربي الأعلى ومن قرأ: {لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ} إلى آخرها فليقل: سبحانك اللهم بلى. إماماً كان أو غيره.

سورة الإنسان

وتسمى سورة هل أتى، وسورة الأمشاج، وسورة الدهر. مكية، إحدى وثلاثون آية، مائتان وأربعون كلمة، ألف وأربعة وخمسون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً} أي قد أتى بني آدم طائفة محدودة من الزمن الطويل غير مقدر في نفسه، غير مذكور بالإنسانية أصلاً، وهي مدة الحمل. وقيل: وقد مرت على آدم أربعون سنة قبل أن تنفخ فيه الروح لم يكن شيئاً مذكوراً لا في السماء ولا في الأرض، بل كان جسداً مصوراً تراباً وطيناً لا يذكر ولا يعرف، ولا يدرى ما اسمه، ولا ما يراد به، ثم نفخ فيه الروح فصار مذكوراً. {إِنَّا خَلَقْنَا ٱلإِنسَٰنَ} أي ولد آدم {مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ} أي من نطفة قد امتزج فيها الماءان: ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر، فأيهما علا كان الشبه له، وما كان من عصب وعظم وقوة، فمن نطفة الرجل، وما كان من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة.

وقال مجاهد: نطفة الرجل بيضاء وحمراء، ونطفة المرأة خضراء وصفراء. {نَّبْتَلِيهِ} أي نختبره بالخير والشر كما قاله الكلبي. وقال الحسن: أي نختبر شكره في السراء وصبره في الضراء. {فَجَعَلْنَٰهُ} أي الإنسان {سَمِيعاً بَصِيراً} ليتمكن من استماع الآيات التنزيلية ومشاهدة الآيات التكوينية، {إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ} أي بينا له سبيل الهدى والضلال بإنزال الآيات ونصب الدلائل، {إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً}، أي ليكون الإنسان إما مؤمناً وإما كافراً. ويقال: إنا هديناه السبيل، ثم جعلناه تارة شاكراً وتارة كفوراً. وقرأ أبو السمال بفتح الهمزة في «أما» على حذف الجواب أي إما شاكراً فبتوفيقنا وإما كفوراً فبسوء اختياره لا بمجرد إجبارنا من غير اختيار من قبله، {إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَ وَأَغْلَٰلاً وَسَعِيراً} أي إنا هيَّأنا للكافرين سلاسل تشد بها أرجلهم، ويقادون بها، وأغلالاً تشد بها أيديهم إلى رقابهم، وناراً موقدة يحرقون بها. وقرأ نافع وهشام وشعبة والكسائي «سلاسلاً» بالتنوين. {إِنَّ ٱلأَبْرَارَ} أي الصادقين في إيمانهم المطيعين لربهم، الموفين بنذرهم {يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ} أي إناء فيه خمر {كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً}، أي كانت تلك الخمر ممزوجة بماء عين كافور، فإن الكافور: اسم عين في الجنة، ماؤها في بياض الكافور، ورائحته، وبرده، ولكن لا يكون فيه طعمه، ولا مضرته، ويبدل من «كافوراً» قوله: {عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ} أي يشرب عباد الله بماء تلك العين الخمر، لكونها ممزوجة بها، فالباء متعلقة بمحذوف حال من مفعول محذوف، أي يشرب المؤمنون الخمر ممزوجة بتلك العين، أو متعلقة ب «يشرب» والضمير يعود على «الكأس»، أي يشربون العين بتلك الكأس والباء للإلصاق، أو مزيدة ويدل له قراءة ابن أبي عبلة يشربها عباد الله، {يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً} أي يقودون العين حيث شاءوا من منازلهم، وتتبعهم، فحيث مالوا مالت معهم أي إن الرجل منهم يمشي في بيوته ويصعد إلى قصوره وبيده قضيب يشير به إلى الماء

فيجزي معه حيثما دار في منازله على مستوى الأرض في غير أخدود ويتبعه حيثما صعد إلى أعلا قصوره،

{يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ} أي بما أوجبوه على أنفسهم لوجه الله تعالى فكيف بما أوجبه الله تعالى عليهم، {وَيَخَٰفُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُۥ} أي شدائده {مُسْتَطِيراً}، أي سريع الوصول إلى أهله من العصاة، {وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ}، أي مع حاجتهم إلى الطعام.

وقال الفضيل بن عياض: أي على حب إطعام الطعام، أي بأن يكون ذلك مع طيب النفس {مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً}، أي مسجوناً مسلماً وهو قول مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير قائلين بلسان الحال: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ} أي لطلب ثواب الله، {لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً} أي مكافأة {وَلاَ شُكُوراً}، أي محمدة بقول أو بفعل.

روي أن عائشة كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت، ثم تسأل المبعوث ما قالوا، فإن ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصاً عند الله تعالى، {إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً} أي تعبس فيه الوجوه {قَمْطَرِيراً} أي شديداً.

روي أن الكافر يعبس حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران، {فَوَقَٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَومِ} أي شدائده بسبب خوفهم عنه، {وَلَقَّٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً} أي وأعطاهم بسبب طلب رضا الله حسناً في وجوههم، وفرحاً في قلوبهم، {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيراً} أي وجزاهم بصبرهم على الإيثار وما يؤدي إليه من الجوع والعري بستاناً فيه مأكل هني، وحريراً فيه ملبس بهي، {مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَىٰ ٱلأَرَائِكِ} أي جالسين في الجنة على السرر في الحجال، {لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً}، أي لا يصيبهم في الجنة حر محم، ولا برد مؤذ، لأن هواءها معتدل في الحر والبرد. ويقال: إن في الجنة من الضياء ما لا يحتاجون معه إلى شمس ولا قمر، فإن الزمهرير القمر في لغة طيىء كما رواه ثعلب ونورها من نور العرش {وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا} معطوف على محل «لا يرون» وهو في محل نصب حال من الضمير المستكن في «متكئين»، أي بعداء عن الحر والبرد، وقريبة ظلال شجرها منهم. وقرىء «ودانية» بالرفع على أنه خبر ل «ظلالهما»، والجملة موضع الحال والمعنى: لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً. والحال أن ظلالها دانية عليهم، أي أن ظلال أشجار الجنة قريبة من الأبرار مظلة عليهم، بمعنى أنه لو هناك شمس مؤذية لكانت أشجارها مظلة عليهم {وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً} أي أدنيت منهم عناقيد ثمارها، فهم يتناولون منها كيف شاءوا، {وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ} أي بصحاف من فضة، {وَأَكْوابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْقَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ} أي وبكيزان تكونت جامعة بين صفاء الزجاج وشفوفه، وبياض الفضة، ولينها، فنسبة قارورة الجنة إلى قارورة الدنيا، كنسبة فضة الجنة إلى رمل الدنيا، لأن أصل القوارير في الدنيا: الرمل، وأصل قوارير الجنة هو فضة شفافة.

وقرىء «قوارير» الثاني بالرفع، أي هي قوارير {قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً} أي قدروا القوارير في أنفسهم وأرادوا أن تكون على أشكال معينة موافقة لشهواتهم، فجاءت حسبما قدروها، وقيل: الضمير للطائفين بها، أي قدر

الطائفون الشراب فيها على قدر اشتهائهم. وقرىء «قدروها» بالبناء للمفعول، أي جعلوا قادرين لها كما شاءوا، {وَيُسْقَوْنَ فِيهَا} أي الجنة {كَأْساً} أي خمراً {كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً}، أي ما يشبه الزنجبيل {عَيْناً فِيهَا} أي الجنة {تُسَمَّىٰ} أي تلك العين {سَلْسَبِيلاً }.

قال مقاتل وابن حبان: سميت سلسبيلاً لأنها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنان. ويقال: معناها سل الله سبيلاً إليها. وسميت بذلك لأنه لا يشرب منها إلا من سأل الله إليها سبيلاً بالعمل الصالح. وقرأ طلحة سلسبيل بغير تنوين للعلمية والتأنيث،

{وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ} أي دائمون على ما هم عليه من الطرواة والبهاء. وقيل: أي محلون كما رواه نفطويه عن ابن الأعرابي أو مسورون كما رواه الفراء وهم خلقوا في الجنة لخدمة أهل الجنة كالحور، ولم يخلقوا عن ولادة على الصحيح، {إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً} لصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم وانعكاس أشعة بعضهم إلى بعض، وانتشارهم في مجالسهم ومنازلهم، {وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ} أي في أي مكان كان في الجنة {رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً} وفي الحديث: «أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه» {عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ} وهو ما لطف من الديباج.

قرأ نافع وحمزة «عاليهم» بإسكان الياء مبتدأ، و «ثياب» خبره أي ما يعلوهم من لباسهم ثياب سندس. والباقون بفتح الياء على أنه ظرف خبر مقدم، و «ثياب» مبتدأ مؤخر، والجملة صفة ثانية ل «ولدان»، أي يطوف عليهم ولدان فوقهم ثياب سندس إلخ. وقيل: «عاليهم» حال من ضمير «عليهم» أي ويطوف على الأبرار ولدان عالياً للمطوف عليهم ثياب إلخ أي فوق حجالهم المضروبة عليهم ثياب سندس، {خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ} وهو ما ثخن من الديباج. قرأ نافع وعاصم «كلاهما» بالرفع. وقرأ الكسائي وحمزة «كلاهما» بالخفض. وقرأ ابن كثير «خضر» بالخفض، و «استبرق» بالرفع. وقرأ أبو عمرو، وعبد الله بن عامر «خضر» بالرفع، و «استبرق» بالخفض {وَحُلُّوۤاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ} وهذا معطوف على يطوف عليهم، فإن حلي أهل الجنة يختلف حسب اختلاف أعمالهم، وأيضاً إن الطباع مختلفة فرب إنسان يكون استحسانه لبياض الفضة فوق استحسانه لصفرة الذهب. وقيل: إنما تكون الإسورة من الفضة للولدان الذين هم الخدم، {وَسَقَٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً} أي يطهر شاربه عن دنس الميل إلى الملاذ الحسية والركون إلى ما سوى الحق، فيتجرد لمطالعة جم اله، ملتذاً بلقائه، باقياً ببقائه، وهي غاية منازل الصديقين، ولذلك ختم بها مقالة ثواب الأبرار.

وقال مقاتل: هو عين ماء على باب الجنة تنبع من ساق شجرة من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غل وغش، وحسد، وما كان في جوفه من قذر وأذى، {إِنَّ هَٰذَا} أي الذي ذكر من الطعام والشراب واللباس {كَانَ لَكُمْ جَزَآءً} أي ثواباً من الله بمقابلة أعمالكم الحسنة. وهذا إخبار من الله تعالى لعباده في الدنيا فكأن الله تعالى بيَّن ثواب أهل الجنة

إن هذا كان في حكمي جزاء لكـم يـا معشـر عبـادي لكـم خلقتهـا ولأجلكـم أعددتها.

وقال ابن عباس: المعنى: إنه يقال لأهل الجنة بعـد دخـولهم فيهـا ومشـاهدتهم لنعيمهـا ليـزداد سـرورهم: إن هـذا كـان لكـم جـزاء، {وَكَـانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً} أي مرضياً، وكان الله راضياً عنهم بالقليل من الطاعات، ومعطيهم عليه ثواباً كثيراً، ومنتهـى درجـة العبـد أن يكـون راضـياً مـن ربـه مرضياً لربه، فقوله: {إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء} إشارة إلى الأمر الذي تصـير النفس به راضية من ربه. وقـوله: {وَكَـانَ سَـعْيُكُم مَّشْـكُوراً} إشـارة إلـى كون النفس مرضية لربه. وهـذه الحالـة أعلـى الـدرجات وآخـر المقامـات، ولذلك وقع الختم عليها في ذكر مراتب أحوال الأبرار والصديقين، {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً} أي متفرقاً آية وآيتين، وسورة وهذه الآية تثـبيت الرسول وشرح صدره فيما نسبوه إليه من كهانـة وسـحر، {فَ صْبِرْ لِحُكْـمِ رَبِّكَ} في تـأخير الأذان فـي القتـال أو فـي أداء الرسـالة وتحمـل المشـاق الناشئة من ذلك، {وَلاَ تُطِـعْ مِنْهُـمْ ءَاثِمـاً} أي مقـدماً علـى المعاصـي، أيّ معصـية كـانت، {أَوْ كَفُـوراً} أي جاحـداً للنعمـة، ف «آثـم» هـو الوليـد بـن المغيرة، و «الكفور» هو عتبة بن ربيعة، كما قـاله القفـال وغيـره، واختـاره الرازي. يروى أن عتبة بن ربيعة قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجك بنتي وأسوقها من غير مهر فـإني مـن أجمـل قريـش ولداً. وقال الوليد: أنا أعطيك من المال حتى ترضى فإني من أكـثرهم مـالاً وأرجع عن هذا الأمر، أي عن ذكر النبوة، فقرأ عليهما رسول الله صلى اللـه عليه وسلم عشر آيات من أول {حـم} السـجدة إلـى قـوله تعـالى: {فَـإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنـذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْـلَ صَـٰعِقَةِ عَـادٍ وَثَمُـودَ} (فصـلت: 31) . فانصرفا عنه وقال أحدهما: ظننت أن الكعبة ستقع علي {وَ ذْكُرِ سْمِ رَبِّـكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} أي صل الفجر والظهر والعصر، {وَمِنَ لَّيْلِ فَ سْجُدْ لَـهُ} أي وبعض الليل فصل لربك صلاة المغرب والعشاء، {وَسَـبِّحْهُ لَيْلاً طَـوِيلاً} أي صل له صلاة التهجد في جزء من ليل طويل. قـال بعضـهم: كـان ذلـك مـن الواجبات على الرسول، ثم نسخ، فـالأمر للوجـوب لا سـيما إذا تكـرر علـى سبيل المبالغة، {إِنَّ هَٰؤُلاَءِ} أي الكفرة من أهـل مكـة، {يُحِبُّـونَ ٱلْعَاجِلَـةَ} وينهمكون في لذاتها الفانيـة، {وَيَـذَرُونَ وَرَآءَهُـمْ يَوْمـاً ثَقِيلاً}، أي ويـتركون وراءهم مصالح يوم ثقيل، أي شديد هو له وعذابه، {نَّحْـنُ خَلَقْنَٰهُـمْ وَشَـدَدْنَآ أَسْرَهُمْ}، أي أحكمنا ربـط مفاصـلهم بالأعصـاب، {وَإِذَا شِـئْنَا بَ دَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُـمْ تَبْدِيلاً}، أي وإذا شـئنا أهلكنـا هـؤلاء الكفـرة وأتينـا بأشـباههم فـي الخلقـة، فجعلناهم بدلاً منهم، {إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ} أي إن هذه السورة عظة للخلق من الله، {فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً}، أي فمن شاء الخير لنفسه في الدنيا والآخرة تقرب إلى الله بالعمل بما في هذه السورة، {وَمَـا تَشَـآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ} أي وما تقدرون على تحصيل اتخاذ السبيل إلى اللـه فـي وقـت من الأوقات إلا وقت مشيئة الله تحصيله لكم. وقرأ أبـو عمـرو وابـن عـامر وابن كثير «وما يشاءون» بالياء التحتيـة. وقـرأ ابـن مسـعود «إلا مـا يشـاء الله». {إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً} أي إنه تعالى مبالغ في العلـم والحكمـة فلا يشاء لهم إلا ما يستدعيه علمه وتقتضيه حكمته، {يُدْخِلُ مَـن يَشَـآءُ فِـى

رَحْمَتِهِ} بأن يوفقه للإيمان المؤدي إلى دخول الجنة {وَٱلظَّٰلِمِينَ} وهم الذين صرفوا مشيئتهم إلى غير اتخاذ السبيل إلى الله، {أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً}، أي متناهياً في الإيلام وقرأ عبد الله بن الزبير «والظالمون» بالرفع على الابتداء.

سورة المرسلات

مكية، خمسون آية ومائة وإحدى وثمانون كلمة، ثمانمائة وستة عشر حرفاً. قال ابن مسعود: نزلت والمراسلات عرفاً على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ونحن معه نسير حتى أوينا إلى غار مِنَى، فنزلت، فبينما نحن نتلقاها منه وإن فاه رطب بها، إذ وثبت حية فوثبنا عليها لنقتلها، فذهبت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم «وقيتم شرها كما وقيت شركم».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفاً فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفاً وٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْراً فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقاً فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْراً}. وهذا إقسام من الله تعالى بطوائف من الملائكة أرسلهم بأوامره متتابعين، فهم عصفوا في طيرانهم عصف الرياح، ونشروا أجنحتهم عند انحطاطهم إلى الأرض، ففرقوا بين الحق والباطل، فألقوا ذكراً إلى الأنبياء ويقال: أقسم الله برياح عذاب أرسلها متتابعة كعرف الفرس، فعصفن، وبرياح رحمة نشرن السحاب في الجو ففرقن بعض أجزائه عن بعض، فإن العاقل إذا شاهد هبوب الرياح التي تقلع القلاع، وتهدم الجبال، وترفع الأمواج تمسَّك بذكر الله، والتجأ إلى إعانة الله، فصارت تلك الرياح كأنها ألقت الذكر والإيمان والعبودية في القلب، ويمكن حمل هذه الكلمات الخمس على القرآن، أي والآيات المرسلة على لسان جبريل إلى محمد، النازلة بكل عرف، أي خير، فعصفت سائر الملل، فقهرت سائر الأديان، وجعلتها باطلة، ونشرت تلك الآيات آثار الهداية في قلوب العالمين شرقاً وغرباً، ففرقت بين الحق والباطل. {عُذْراً أَوْ نُذْراً}، وهذا إما بدل من «ذكراً»، أي فأقسم بالملائكة المنزلات وحياً أمراً أو نهياً. ويقال: وعداً أو وعيداً، وإما مفعول لأجله، أي إزالة أعذار المخلوقين وتخويفاً لهم، {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ} أي إن الذي توعدون به من مجيء يوم القيامة لكائن، ثم إنه تعالى ذكر علامات وقوع هذا اليوم فقال: {فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ} أي محقت ذواتها {وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ} أي فتحت فكانت أبواباً، {وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ} أي قلعت بسرعة من أماكنها، {وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ}.

وقرأ أبو عمرو بالواو على الأصل أي حصل لهم الوقت وهو إما وقت يحضرون فيه للشهادة على أممهم، وإما وقت يجتمعون فيه للفوز بالثواب، وإما وقت سؤال الرسل عما أجيبوا به، وسؤال الأمم عما أجابوهم {لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ}. أي يقال: لأي يوم أخرت الأمور المتعلقة بهؤلاء الرسل؟ وهذا القول المقدر إما جواب لإذا، وإما حال من مرفوع أقتت، أي مقولاً فيهم، لأي يوم أخرت إليه أمور الرسل، وهو تعذيب الكفرة وتعظيم المؤمنين، وظهور ما كانت الرسل تذكر من أحوال الآخرة وأهوالها، وعلى هذا فجواب

إذا مقدر وتقديره: فإذا طمست النجوم إلخ وقع ما توعدون أو بان الأمر، {لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ} بدل من «لأي»، وهو اليوم الذي يفصل فيه بني الخلائق ويجوز أن يؤخذ من هذا جواب «إذا»، أي وقع الفصل بين الخلائق، أو فحينئذ تقع المجازاة بالأعمال وتقوم القيامة،

{وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ} أي وما علمك يا أشرف الخلق بيوم الفصل وشدته، فالاستفهام الأول: للاستبعاد والإنكار. والاستفهام الثاني: للتعظيم والتهويل والمعنى: أنت الآن في الدنيا لا تعلم ما يوم الفصل أي لا تعلم عظمه وأهواله على سبيل التفصيل، وإن كنت تعلمها جمالاً، {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} أي وادٍ في جهنم من قيح ودم يوم إذ يفصل بين الخلائق للمكذبين بذلك اليوم وبكل ما أخبر الأنبياء عنه، و «ويل» مبتدأ سوغ الابتداء به كونه دعاء ونحوه، سلام عليكم وفائدة العدول إلى الرفع دلالة على دوام الهلاك للمدعو عليهم {أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلأَوَّلِينَ}، وهم جميع الكفار الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم والوقف هنا كاف، ثم استأنف الله بقوله: {ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلآخِرِينَ} ممن كذبوا الحق من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالإماتة بالتعذيب، وقد وقع ذلك في حق كفار قريش يوم بدر، واستعقبه اللعن في الدنيا والعقوبة الأخروية سرمداً، ويدل على هذا الاستئناف قراءة عبد الله، ثم سنتبعهم بسين التنفيس، أما قراءة الأعمش والأعرج عن أبي عمرو، ثم نتبعهم بتسكين العين فهو تسكين للتخفيف لا للجزم، فهو مستأنف كالمرفوع لفظاً، {كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِـ ٱلْمُجْرِمِينَ} أي مثل ذلك الفعل الشنيع نفعل بكل من أشرك بالله، فيما يستقبل إما بالسيف وإما بالهلاك فسنتنا جارية على ذلك، {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} أي هؤلاء وإن أهلكوا وعذبوا في الدنيا فالمصيبة العظمى معدة لهم يوم القيامة. وقيل: هذا الويل لعذاب الدنيا، فالمعنى: شدة عذاب يوم إذ أهلكناهم للمكذبين بآيات الله وأنبيائه، {أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ} أي من نطفة قذرة منتنة. {فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ} أي في مكان حريز رحم المرأة، {إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ} لله تعالى أي وقت الولادة، {فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ} أي قدرناً خلقه في رحم المرأة تقديراً فنعم المقدرون له نحن، فإن إيقاع الخلق على هذا التحديد نعمة من المحدد على المخلوق، أو فقدرنا على تصويره كيف شئنا، فنعم القادرون نحن حيث خلقناه في أحسن الهيئات.

قرأ نافع والكسائي «فقدرنا» بتشديد الدال. والباقون بالتخفيف. وقال علي كرم الله وجهه: «ولا يبعد أن يكون المعنى في التخفيف والتشديد واحد لأن العرب تقول: قدر وقدر عليه الموت». أي فقدرنا بالتخفيف يكون بمعنى قدرنا بالتشديد، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الهلال: «إذا غم عليكم فاقدروا له». أي قدروا له السير في المنازل {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} بقدرتنا على البدء والإعادة بعد الموت، {أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلأَرْضَ كِفَاتاً أَحْيَآءً وَأَمْوٰتاً}، أي ألم نجعل الأرض موضعاً يضم أحياء كثيرة على ظهره، وأمواتاً غير محصورة في بطنه، فالأحياء يسكنون في منازلهم، والأموات يدفنون في قبورهم.

ونقل القفال عن ربيعة: أنه قال: دلت هذه الآية على وجوب قطع النباش، لأن الأرض كانت حرزاً للميت. {وَجَعَلْنَا فِيهَا} أي على ظهر الأرض

{رَوَاسِيَ}، أي جبالاً ثوابت لا تزول {شَٰمِخَٰتٍ} أي عاليات {وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتاً}، أي غاية في العذوبة {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} بأمثال هذه النعم العظيمة وتقول لهم الزبانية بعد الفراغ من الحساب: {ٱنطَلِقُوٓاْ} يا معشر المكذبين {إِلَىٰ مَا كُنتُمْ} في الدنيا {بِهِ تُكَذِّبُونَ} من العذاب.

روي أن الشمس تقرب يوم القيامة من رؤوس الخلائق وليس عليهم يومئذ لباس، ولا كنان، فتلفحهم الشمس، وتأخذ بأنفاسهم ويمتد ذلك اليوم، ثم ينجي الله برحمته من يشاء إلى ظل من ظله تعالى، فهناك يقولون: فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم وتقول: خزنة النار للمكذبين انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون من عقاب الله، {ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ} أي إلى دخان جهنم. وقرأ يعقوب «انطلقوا» على لفظ الماضي، أي فانقادوا للأمر لأجل أنهم لا يستطيعون امتناعاً منه، {ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ} أي فرق، وهي كون النار من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومحيطة بهم {لَّا ظَلِيلٍ}، أي لا يمنع حر الشمس، {وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ} أي ولا يدفع من لهب النار شيئاً، أو ولا يبعد من العطش كما قاله قطرب

{إِنَّهَا} أي النار {تَرْمِى بِشَرَرٍ} وهو ما يتطاير من النار {كَٱلْقَصْرِ} من البناء في عظمه {كَأَنَّهُ جِمَٰلَةٌ} أي إبل {صُفْرٌ}، أي في الحركة واللون، فإن الشرار لما فيه من النار يكون أصفر، وهذا تنبيه على أن في كل واحد من تلك الشرارات أنواعاً من البلاء والمحنة، فكأنه قيل: تلك الشرارات كالجمالات الموقرة بأنواع المحنة والبلاء.

قرأ حمزة والكسائي وحفص «جمالة» بغير ألف بعد اللام. والباقون بالألف {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} بهذه الأمور، {هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ} فيه بحجة تنفعهم والسؤال قد انقضى قبل ذلك. وقرأ الأعمش بنصب «يوم»، أي هذا الذي قص عليكم واقع يوم ينطقون، {وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ}، أي أنهم لم يؤذنوا في العذر، وهم لم يعتذروا أيضاً لا لأجل عدم الإذن بل لأجل عدم العذر في نفسه {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} بهذا اليوم {هَٰذَا}، أي اليوم {يَوْمُ ٱلْفَصْلِ} أي فصل حكومات جميع المكلفين {جَمَعْنَٰكُمْ} يا معشر المكذبين من جميع هذه الأمة {وَٱلْأَوَّلِينَ} من المكذبين، {فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ}، أي فإن كان لكم حيلة في دفع الحقوق عن أنفسكم فافعلوها وغالبوني، {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} بالبعث {إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ} أي في ظلال شجرة، {وَعُيُونٍ} أي ماء ظاهر جار.

وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وحفص بضم العين. والباقون بكسرها، {وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ} فمتى اشتهوا فاكهة وجدوها حاضرة فليست فاكهة الجنة مقيدة بوقت دون وقت، كما في أنواع فاكهة الدنيا، فيقول الله تعالى لهم: {كُلُواْ} من الثمار {وَ ٱشْرَبُواْ} من الأنهار { هَنِيٓئاً} أي سائغاً بلا داء ولا تعب {بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} في الدنيا من الخيرات ذكر الله تعالى ثلاثة أنواع من النعم في مقابلة ثلاث شعب من النار، كأنه قيل: ظلال المكذبين ما كانت ظليلة، وما كانت مغنية عن اللهب والعطش، أما المتقون فظلالهم ظليلة حاجزة بينهم وبين اللهب، ومغنية لهم عن العطش ومعهم الفواكه التي يتمنونها في مقابلة شرار النار التي يخافها المكذبون، ولما قال تعالى للكفار: {ٱنطَلِقُواْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ} قال المؤمنين: {كُلُواْ

وَ ٱشْرَبُواْ هَنِيئَاً}. {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ} أي إنا نجزي المحسنين في العقيدة مثل ذلك الجزاء {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} يكون هذا النعيم للمتقين المحسنين، {كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً} أي كلوا يا معشر المكذبين وعيشوا يسيراً في الدنيا، {إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ} أي مشركون، مصيركم النار في الآخرة.

وقال أبو السعود: وهذا مقدر بقول هو حال من المكذبين، أي الويل ثابت لهم مقولاً لهم ذلك تذكيراً لهم بحالهم في الدنيا، وبما جنوا على أنفسهم من إيثار المتاع الفاني عن قريب على النعيم الخالد، وعلّل ذلك بإجرامهم دلالة على أن كل مجرم مآله هذا، {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} بما يجب تصديقه. وهذا هو النوع التاسع من أنواع تخويف الكفار، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لاَ يَرْكَعُونَ}، أي وإذا قيل للمجرمين في الدنيا: اخضعوا لله بالتوحيدة، وأطيعوا، لا يقبلون ذلك. ويقال: نزلت هذه الآية في ثقيف حيث قالوا: لا نحني ظهورنا بالركوع والسجود. ويقال: هذا في الآخرة وذلك لما يقول الكفار : والله ربنا ما كنا مشركين. قال الله تعالى لهم: اسجدوا إن كنتم صادقين فيما تقولون، فلم يقدروا على السجود وبقيت أصلابهم كالصياصي. {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} بمن يرشدهم إلى المصالح الجامعة بين خيرات الدنيا والآخرة، وهذا هو النوع العاشر من أنواع تخويف الكفار، {فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} أي إذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل اللطيفة مع وضوحها، فبأي كلام بعدها يؤمنون، لأن القرآن مصدّق للكتب القديمة، موافق لها في أصول الدين، فيلزم من تكذيبه تكذيب غيره من الكتب، لأن ما في غيره موجود فيه، فلا يمكن الإيمان بغيره مع تكذيبه.

سورة النبأ

وتسمى سورة التساؤل، وسورة عم. مكية، هي أربعون آية، مائة وثلاث وسبعون كلمة، سبعمائة وسبعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ} أي عن أيّ شيء يتساءل أهل مكة فيما بينهم إنكاراً واستهزاء {عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ} قوله: {عَمَّ يَتَسَاءلُونَ} سؤال، وقوله: {عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ} جواب. فالسائل والمجيب هو الله تعالى، ونظيره قوله تعالى {لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ} (غافر: 61) . { ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ} والخبر العظيم هو يوم القيامة، فمنهم من جزم باستحالته فيقول: إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر، وما نحن بمبعوثين. ومنهم من شك في وقوعه فيقول: ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً، وما نحن بمستيقنين. وقيل: الخبر العظيم هو القرآن فإن بعضهم جعله سحراً، وبعضهم جعله شعراً، وبعضهم قال: إنه أساطير الأولين.

روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دعاهم إلى التوحيد، وأخبرهم بالبعث بعد الموت، وتلا عليهم القرآن، جعلوا يتساءلون بينهم فيقولون: ماذا جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ويسألون الرسول والمؤمنين عنه استهزاء. وقيل: النبأ العظيم هو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك

لأنهم عجبوا من إرسال الله محمداً إليهم. وقرأ عكرمة وعيسى بن عمر عما بالألف على الأصل. وعن ابن كثير أنه قرأ عمه بها السكت. {كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ}، أي ليرتدعوا عمّا هم عليه، فإنهم سيعلمون عمّا قليل حقيقة الحال، إذا حل بهم العذاب والنكال، وسيعلمون أن ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق لا دافع له، واقع لا ريب فيه. وقال القاضي: سيعلمون نفس الحشر والمحاسبة، وسيعلمون نفس العذاب إذا شاهدوه. وقال الضحاك: أي سيعلم الكفار عاقبة تكذيبهم، وسيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم. وروي عن ابن عامر «ستعلمون» بالتاء المنقطة من فوق، {أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلأَرْضَ مِهَٰداً} أي فراشاً. وقرىء «مهداً» أي مناماً، {وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً} للأرض حتى لا تميد بأهلها {وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجاً} ذكوراً وإناثاً، وقبيحاً، وحسناً، وطويلاً، وقصيراً. {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً} أي قطعاً للتعب، أو نوماً منقطعاً، فإن النوم بمقدار الحاجة من أنفع الأشياء، أما دوامه فمن أضر الأشياء، {وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاساً} فإن ظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هرباً من عدو، أو إخفاء ما لا يحب الإنسان اطلاع غيره عليه، وأيضاً بسبب ما يحصل فيه من النوم يندفع عنه أذى التعب الجسماني، وأذى الأفكار الموحشة النفسانية، فإن المريض إذا نام بالليل وجد الخفة العظيمة، {وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً} أي وقت معاش تتقلبون فيه في مكاسبكم، {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً} أي خلقنا فوق رؤوسكم سبع سموات غلاظاً قوية الخلق، محكمة البناء، لا يؤثر فيها مر الدهور، {وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً} أي شمساً مضيئة لبني آدم، {وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ}، أي السحائب بالرياح {مَآءً ثَجَّاجاً} أي صباباً. ويروى عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعكرمة أنهم قرأوا «وأنزلنا بالمعصرات» أي بالرياح المثيرة للسحاب،

{لِّنُخْرِجَ بِهِ} أي بذلك الماء {حَبّاً} يقتات، كالحنطة والشعير والأرز، {وَنَبَاتاً} لا يكون له كمام كالحشيش، {وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافاً} أي مجتمعة تداخل بعضها في بعض، {إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتاً} أي إن يوم فصل الله بين الخلائق كان في تقدير الله تعالى ميعاد الاجتماع كل الخلائق في قطع الخصومات، وميقاتاً لما وعد الله من الثواب والعقاب،{يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ} نفخة البعث، أي تنفخ الأرواح في الأجساد، {فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً}،أي فتبعثون من قبوركم، فتأتون إلى الموقف أمماً، كل أمة مع إمامه ا حتى يتكامل اجتماعهم، {وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ} لنزول الملائكة. قرأ عاصم وحمزة والكسائي خفيفة التاء. والباقون بتشديدها {فَكَانَتْ أَبْوَٰباً} أي فصارت السماء ذات أبواب، {وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ} في الجو على هيئاتها بعد قلعها من مقارها، {فَكَانَتْ سَرَاباً} أي فصارت بعد تسييرها مثل السراب إذ ترى على صورة الجبال، ولم تبق على حقيقتها لتفتت أجزائها، {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً} أي طريقاً، فخزنة الجنة يستقبلون المؤمنين عند جهنم يرصدون الكفار {لِّلطَّٰغِينَ}، أي للمتكبرين على الله {مَآباً} أي مرجعاً {لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَاباً}، أي حقباً بعد حقب. وقرأ حمزة «لبثين» بغير ألف {لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا}، أي الأحقاب {بَرْداً} أي هواء بارداً، ولا م اءً بارداً. وقال الأخفش والكسائي، والفراء، وقطرب، والعتبي: أي نوماً، سمي بذلك لأنه يقطع

سورة العطش، {وَلاَ شَرَاباًإِلاَّ حَمِيماً} أي ماء حاراً جداً، {وَغَسَّاقاً} بارداً منتناً لا يطاق، وهو المسمى بالزمهرير. قرأ حمزة والكسائي وعاصم من رواية حفص عنه بتشديد السين، {جَزَآءً وِفَاقاً} أي جوزوا بذلك جزاء موافقاً لأعمالهم، {إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً}، أي كانوا لا يخافون، أي يحاسبوا بأعمالهم أو إنهم كانوا غير مؤمنين وذلك لأن المؤمن لا بدّ وأن يرجو رحمة الله، لأنه قاطع بأن ثواب إيمانه زائد على عقاب جميع المعاصي سوى الكفر، {وَكَذَّبُواْ بِآيَٰتِنَا} أي بجميع دلائل الله تعالى في التوحيد والنبوة والمعاد {كِذَّاباً}.

وقرىء بتخفيف الذال. وقرىء «كذاباً» بضم الكاف وتشديد الذال جمع كاذب، أي كذبوا بالقرآن والشرائع كاذبين، فكل من يكذب بالحق فهو كاذب، {وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ} أي ضبطناه {كِتَٰباً} أي حال كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ، أو كل شيء من أعمال بني آدم حفظناه مكتوباً في صحف الحفظة. وقرأ أبو السمال «وكل» بالرفع على الابتداء، {فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً} أي فيقال لهم في الآخرة عند وقوع العذاب عليهم: ذوقوا جزاءكم فلن نزيدكم إلا عذاباً، أي كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، وكلما خبت زدناهم سعيراً، {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً} أي فوزاً بالمطلوب {حَدَآئِقَ} أي بساتين فيها أنواع الأشجار المثمرة، {وَأَعْنَٰباً} أي كروماً {وَكَوَاعِبَ}، أي نساء تكعبت ثديهن {أَتْرَاباً}، أي مستويات في السن على ثلاث وثلاثين سنة {وَكَأْساً دِهَاقاً}، أي ممتلئة، {لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّٰباً} أي لا يجري بين المتقين كلام باطل وتكذيب من واحد لغيره بسبب الكأس التي يشربون منها. وقرأ الكسائي بالتخفيف {جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَاباً} أي جازى الله المتقين بمفاز جزاء كائناً منه تفضلاً منه بقدر ما وجب له فيما وعده من الأضعاف، لأنه تعالى قدر الجزاء على ثلاثة أوجه: وجه منها على عشرة أضعاف، ووجه على سبعمائة ضعف، ووجه على ما لا نهاية، والمعنى: راعيت في ثواب أعمالكم الحساب لئلا يقع فيه نقصان. وقرأ ابن قطيب «حساباً» بالتشديد بمعنى محسب.

{رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ}. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو برفع «رب» و «الرحمٰن». وقرأ عاصم وعبد الله بن عامر بجرهما. وقرأ حمزة والكسائي بجر الأول مع رفع الثاني. {لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً} أي لا يملك أهل السموات والأرض أن يخاطبوه تعالى من تلقاء أنفسهم خطاباً ما، في شيء ما، والوقف هنا كافٍ. {يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ}.

قال الضحاك والشعبي: هو جبريل وعن ابن مسعود أنه ملك أعظم من السموات والجبال. وعن ابن عباس هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً، {وَٱلْمَلَٰئِكَةُ صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ} منهم في التكلم، {وَقَالَ صَوَاباً} أي وقال ذلك المأذون له بعد ورود الأذن له قولاً صادقاً حقاً. وقيل: المعنى: لا يشفعون إلا في حق شخص أذن له الرحمن في شفاعته، وذلك الشخص كان ممن قال صواباً، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، و «يوم» ظرف لقوله تعالى: {لاَّ يَتَكَلَّمُونَ}. {ذَلِكَ} أي يوم قيامهم على الوجه المذكور، {ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ} أي الثابت من غير صارف {فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ

إِلَىٰ رَبِّهِ مَآباً} أي فمن شاء أن يتخذ مرجعاً إلى ثواب ربه فعل ذلك بالإيمان والطاعة، {إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ} أي خوَّفناكم يا أهل مكة بالقوارع الواردة في القرآن، {عَذَاباً قَرِيباً} هو عذاب الآخرة، وكل ما هو آتٍ قريب. {يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} و «ما» استفهامية، أي يوم يبصر كل امرىء أيّ شيء قدَّمت يداه، مثبتاً في صحيفته خيراً كان أو شراً وإما موصولة، أي يوم ينظر كل امرىء إلى الذي قدمته يداه، {وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ} لما قطع بالعقاب {يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰباً} أي ليتني لم أبعث للحساب في هذا اليوم، وبقيت تراباً كما كنت أوليتني كنت تراباً في الدنيا، فلم أخلق ولم أكلف، وقيل: يقول الكافر عندما يقول الله للبهائم بعد محاسبته بينها كوني تراباً، يا ليتني أصير تراباً مثل تلك البهائم لأتخلص من عذاب الله تعالى. وقيل: ويقول إبليس لما عاين ما في آدم من الثواب والراحة يوم القيامة: ليتني كنت مكان آدم، وذلك لأن إبليس عاب آدم بأنه خلق من تراب، وافتخر بأنه خلق من نار. وقال مقاتل: نزل قوله تعالى: {يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} في أبي سلمة، عبد الله بن عبد الأسد المخزومي. وقوله: {وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ} في أخيه الأسد بن عبد الأسد.

سورة النازعات

مكية. خمس وأربعون آية، مائة وثلاث وسبعون كلمة وتسعمائة وثلاثة وخمسونن حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقاً} أي والملائكة الذين ينزعون روح الكافر من جسده من تحت كل شعرة، ومن تحت الأظافر، وأصول القدمين كما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل، فتخرج نفس الكافر كالغريق في الماء. {وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطاً} أي والملائكة التي تحل نفس المؤمن حلاً رفيقاً، فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير، وتنشط روح المؤمن بالخروج إلى الجنة. {وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحاً} أي والملائكة الذين ينزعون نفس الصالح يسلونها سلاً رفيقاً رويداً، ثم يتركونها حتى تستريح، ثم يستخرجونها بعد ذلك برفق ولطافة لئلا يصل إليه ألم وشدة، {فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقاً} أي والملائكة الذين يسبقون بأرواح المؤمنين إلى الجنة، وبأرواح الكافرين إلى النار، {فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْراً}، أي فالملائكة الذين يدبرون أمور العباد، قال عبد الرحمن بن سابط: يدبر الأمر في الدنيا أربعة من الملائكة: جبريل، وميكائيل، وملك الموت، وإسرافيل.

فأما جبريل: فهو موكل بالرياح والجنود.

وأما ميكائيل: فهو موكل بالقطر والنبات.

وأما عزرائيل: فهو موكل بقبض الأرواح.

وأما إسرافيل: فهو ينزل عليهم بالأمر من الله تعالى وليس في الملائكة أقرب منه. {يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ} و «يوم» منصوب بجواب القسم المضمر، أي لتبعثن يا كفار مكة يوم تتحرك النفخة الأولى مع ظهور الصوت، وسميت النفخة: بالراجفة، لأن الدنيا تتزلزل عندها وتصوت فإن

تلك النفخة هي المحركة لكل شيء، {تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ} أي النفخة الثانية والرادفة: رجفة أخرى تتبع الأولى، فتضطرب الأرض لإحياء الموتى، كما اضطربت في الأولى لموت الإحياء. ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن بين النفختين أربعين عاماً، ويروى أن في هذه الأربعين يمطر الله الأرض ويصير ذلك الماء عليها كالنطف، وأن ذلك كالسبب للإحياء، ولله أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. {قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ} أي قلوب كثيرة وهي قلوب الكفار يوم إذ يقع النفختان شديدة الاضطراب، وهذه الجملة مبتدأ وخبر، {أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ} أي أبصار أصحاب هذه القلوب ذليلة، {يَقُولُونَ} منكرين للبعث متعجبين منه: {أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ} بعد موتنا {فِى ٱلْحَافِرَةِ}، أي في الحالة الأولى. وقرأ أبو حيوة «في الحفرة»، أي أنرد إلى ابتداء أمرنا فنصير أحياء كما كنا، {أَءِذَا كُنَّا عِظَٰماً نَّخِرَةً} أي متفتتة، نرد ونبعث مع كون تلك العظام أبعد شيء من الحياة. وقرأ حمزة وعاصم «ناخرة» بألف أي فارغة تمر بها الريح، فيسمع لها صوت. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي «إذا» على الخبر، {قَالُواْ تِلْكَ} أي الرجعة إلى الحياة {إِذاً} أي إن رددنا إلى الحالة الأولى وصحَّ ذلك {كَرَّةٌ خَٰسِرَةٌ}، أي رجعة ذات هلاك أي إن الرجعة إن صحت، فنحن إذاً خاسرون لتكذيبنا بها، وهذا استهزاء منهم

{فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ}، أي لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله بل هي سهلة هينة في قدرته، لأنها حاصلة بصيحة واحدة من إسرافيل، {فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ} أي فإذا هم أحياء على وجه الأرض البيضاء المستوية من أرض الآخرة بعد ما كانوا أمواتاً في جوف أرض الدنيا، {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ} أي أليس قد أتاك يا أشرف الخلق حديث موسى هذا إن اعتبر إتيانه قبل هذا الكلام، وإلا فالمعنى: هل أتاك يا أكرم الرسل حديثه؟ أنا أخبرك به: {إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ} ظرف ل «حديث» {طُوًى} وهو اسم واد بالشام، وهو عند الطور بين أيلة ومصر، وإنما سميت «طوى» لكثرة ما مشت عليه الأنبياء.

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم الطاء غير منون. وقرأ الباقون بضم الطاء منوناً.

وروي عن أبي عمرو بكسر الطاء. { ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ}. عن الحسن قال: كان فرعون علجاً من همدان، وعنه أيضاً كان من أصبهان، طوله أربعة أشبار، وهو أول من اتخذ القبقاب ليمشي فيه خوفاً من أن يمشي على لحيته. وقال مجاهد: كان من أهل اصطخر. وقرأ عبد الله «أن اذهب» لأن في النداء معنى القول، {إِنَّهُ طَغَىٰ} أي تجاوز الحد على الخالق، وعلى الخلق، فكفر بالله، وتكبر على بني إسرائيل، فاستعبدهم، {فَقُلْ} بعد ما أتيته: {هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ}؟ أي هل لك يا فرعون سبيل إلى أن تصلح فتوحد بالله؟ وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الزاي، {وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ} أي وهل أدعوك إلى معرفة ربك بالبرهان فتعرفه، {فَتَخْشَىٰ} فإن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة فمن خشي الله أتى منه كل خير، ومن أمن اجترأ على كل شر، {فَأَرَاهُ ٱلآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ} أي فذهب موسى إلى فرعون، فأراه قلب العصا حية، {فَكَذَّبَ} فرعون موسى بالقلب واللسان وسمى معجزته

سحراً، {وَعَصَىٰ} الله تعالى بإظهار التمرد بعد ما علـم صـحة الأمـر حيـث اجترأ على إنكار وجود رب العالمين، {ثُـمَّ أَدْبَـرَ} أي انصـرف عـن موسـى وأعرض عن الإيمان، {يَسْعَىٰ} أي يجتهد في مكايدة موسى، وفي معارضة الآيـة، {فَحَشَـرَ}، أي فجمـع السـحرة بالشـرط للمعارضـة {فَنَـادَىٰ} فـي المجمع بنفسه، أو بواسطة المنـادي {فَقَـالَ أَنَـا۠ رَبُّكُـمُ ٱلۡأَعۡلَـىٰ} أي لا رب فوقي، {فَأَخَذَهُ ٱللَّـهُ نَكَـالَ ٱلۡأٓخِـرَةِ وَٱلۡأُولَـىٰٓ} أي فعـذبه اللـه فـي الآخـرة بالإحراق بالنار، وفـي الـدنيا بـالإغراق بالمـاء. وقيـل: فعـاقبه اللـه بكلمتـه الآخرة وهي قوله: {أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَـىٰ} وبكلمتـه الأولـى وهـي قـوله: {مَـا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي} (القصص: 83) وكان بينهما أربعون سنة، فـالله تعالى يمهل ولا يهمل، {إِنَّ فِي ذَٰلِـكَ} أي فـي قصـة فرعـون {لَعِبۡـرَةً} أي لعظة {لِّمَن يَخۡشَىٰٓ}، وذلـك أن يـدع التمـرد علـى اللـه تعـالى، والتكـذيب لأنبيائه خوفاً من أن ينزل به ما نزل بفرعون، وعلماً بأن اللـه تعـالى ينصـر رسله، فاعتبروا معاشر المكذبين لمحمد بما ذكرناه، {ءَأَنتُمۡ أَشَـدُّ خَلۡقـاً أَمِ ٱلسَّمَآءُ}، أي أأنتم يا أهل مكة في خلقكم بعد موتكم أصعب فـي تقـديركم أم خلق السماء على عظمها والوقف هنا تام، {بَنَىٰهَا} وهـذا تفصـيل لكيفيـة خلقها، {رَفَعَ سَمۡكَهَا} أي جعل مقدار ارتفاعها من الأرض، ومقـدار ذهابهـا في سمت العلو مسافة خمسمائة عام.

واعلم أن امتداد الشيء إذا أخذ من أعلاه إلى أسفله سمي عمقاً، وإذا أخذ من أسـفله إلـى أعلاه سـمي سـمكاً، {فَسَـوَّاهَا} أي فجعلهـا مسـتوية ملساء ليس فيهـا ارتفـاع، ولا انخفـاض، ولا تفـاوت، ولا فطـور، {وَأَغۡطَـشَ لَيۡلَهَا} أي جعل الليل مظلماً {وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا} أي وأبرز نهارهـا، وإنمـا عـبر عن النهار بالضحى، لأنها أكمل أجزاء النهار في الضوء، {وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ} بألفي سنة {دَحَىٰهَا}، أي بسطها على الماء،

{أَخۡرَجَ مِنۡهَا} أي الأرض {مَآءَهَا}، أي عيونها المنفجرة بالماء وأنهارها الجاري ماؤها، {وَمَرۡعَىٰهَا} أي نباتها من العشب والشـجر، والثمـر، والحـب، والعصف، والحطب، واللباس، والـدواء حـتى النـار والملـح، فـإن النـار مـن العيدان والملح من الماء، وإذا تأملت علمت أن جميع ما يتلذذ الناس به في الدنيا أصله الماء والنبات، {وَٱلۡجِبَـالَ أَرۡسَـىٰهَا}، أي أثبتهـا علـى وجـه الأرض لتسـكن، {مَتَٰعـاً لَّكُـمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُـمۡ} أي إنـا خلقنـا هـذه الأشـياء منفعـة لكـم ولأنعامكم، {فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ} أي الداهية العظمى أعنـي {يَـوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ}، أي يوم يتذكر كل أحد فيه ما عمله في الـدنيا مـن خير أو شر بأن يشاهده مدوناً في صحيفة أعماله وقد كان نسيه مـن فـرط الغفلة، وطول الأمد ويجوز أن يكون يوم بدلاً من الطامة الكبرى مبنياً على الفتح لإضافته إلى الفعل علـى رأي الكـوفيين، {وَبُـرِّزَتِ ٱلۡجَحِيـمُ} عطـف على جاءت، أي أظهرت الجحيم إظهاراً بينـاً {لِمَـن يَـرَىٰ} فيراهـا كـل ذي بصر من المؤمنين والكفار. وقرأ أبو نهيك و «برزت» بالتخفيف.

وقرأ ابن مسعود «لمن رأى» فعلاً ماضياً. وقرأ زيد ابن علي وعائشة وعكرمة «برزت» مبنياً للفاعل مخففاً، و «ترى» بالتـاء وهـي إمـا للتـأنيث فالضمير ل «الجحيم»، وإما للخطاب أي لمن ترى أنت يا محمد من الكفـار الذين يؤذونك، وجواب «إذا» محذوف تقديره انقسم الناس قسمين، {فَأَمَّا

مَن طَغَىٰ} أي تمرد عن الطاعة وجاوز الحد في العصيان، {وَءاثَـرَ ٱلْحَيَـوٰةَ ٱلدُّنْيَا} أي انهمك فيها، ولم يستعد للحياة الأخروية بالطاعة، {فَإِنَّ ٱلْجَحِيـمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ} له، ويقال: التقدير فإن الجحيم هي المأوى اللائـق بمـن كـان موصوفاً بهذه الصفات. قيل: نزلـت هـذه الآيـة فـي النضر وأبيـه الحـرث، {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ} أي مقام حضرة ربه {وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ} أي عن الميل إلى الحرام الذي يشتهيه {فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ} لـه، قيـل: نزلت الآيتان في أبي عزيز بن عمير، ومصعب بن عمير، وقـد قتـل مصـعب أخاه أبا عزيز يوم أحد، ووقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه حتى استشهد رضي الله عنه.

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: {أَمَّا مَنِ طَغَىٰ} فهو أخو مصعب بن عمير، أسر يوم بدر وأخذته الأنصـار، فقـالوا: مـن أنـت؟ قـال: أنـا أخـو مصعب بن عمير فلـم يشـدوه فـي الوثـاق وأكرمـوه وبيَّتـوه عنـدهم، فلمـا أصبحوا حدثوا مصعب بن عمير حديثه فقال: ما هو بأخٍ لـه، شـدوا أسـيركم فإن أمه أكثر أهل البطحاء حلياً ومالاً، فأوثقوه حتى تبعث أمه فداءه {وَأَمَّـا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبّهِ} فمصعب بن عمير، وقى رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم بنفسه يوم أحد حين تفرق النـاس عنـه حـتى نفـذت المشـاقص فـي جوفه، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم متشـحطاً فـي دمـه قـال صلى الله عليه وسلم: «عند الله أحتسبك»، وقال صـلى اللـه عليـه وسـلم لأصحابه: «لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهمـا وإن شـراك نعلـه مـن ذهب». {يَسْأَلُونَكَ} يا أشرف الخلق {عَنِ ٱلسَّاعَةِ} على سبيل الاستهزاء حين سمع المشركون وصفها بالأوصاف الهائلة مثل طامة وصاخة، وقارعة: {أَيَّانَ مُرْسَٰهَا} أي متى إقامتها، أي في أيّ وقت يوجدها الله تعـالى، {فِيـمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا} أي في أيّ شيء أنت من أن تذكر وقتهـا لهـم {إِلَـىٰ رَبِّـكَ مُنتَهَٰهَآ}، أي إلى ربك يرجع منتهى علمها لم يؤته أحداً من خلقه، {إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَٰهَا} أي إنما أنت مخوف من يخاف هولهـا، فالإنـذار لا يتوقـف على علم المنذر بـوقت قيامهـا. وقـرأ عمـر بـن عبـد العزيـز، وأبـو جعفـر، وطلحـة، وابـن محيصـن «منـذر» بـالتنوين، وهـو الأصـل وحـذف التنـوين للتخفيف، وكلاهما يصلح للحال والاستقبال، فإذا أريـد الماضـي فلا يجـوز إلا الإضافة، {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَٰهَا}. وهـذا إمـا تأكيـد لما يدل عليه الإنذار من سرعة مجيء المنذر به، أي كأن كفار قريـش يـوم يعاينون الساعة لم يلبثوا بعد الإنذار بها إلا عشية يوم واحـد أو ضـحاه، وإمـا رد لمـا أدمجـوه فـي سـؤالهم فـإنهم كـانوا يسـألون عـن السـاعة بطريـق الاستبطاء مستعجلين بها، ويقولون: متى هذا الوعد؟ فالمعنى: كـأنهم يـوم يرون قيام الساعة لم يلبثوا بعد الوعيد بها إلا عشـية هـي مـن الـزوال إلـى الغروب، أو ضحى يومها واعتبار كون اللبث بعد الإنذار أو بعد الوعيد تحقيقاً للإنذار ورداً لاستبطائهم.

سورة عبس

وتسمى سورة الأعمى، وسورة السفرة. مكية، إحدى وأربعون آية، ومائة وثلاث وثلاثون كلمة، وخمسمائة وثلاثة وثلاثون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{عَبَسَ} أي كلح النبي وجهه. وقرىء بالتشديد للمبالغة، {وَتَوَلَّىٰ} أي أعرض بوجهه لأجل {أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ} اسمه عبد الله ابن أم مكتوم، وهو عبد الله بن شريح بن مالك الفهري، وأم مكتوم كانت أم أبيه، واسمها عاتكة بنت عامر المخزومي، وهو ابن خالة خديجة بنت خويلد، أسلم قديماً بمكة، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش: عتبة، وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم فقال له: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله، وكرر ذلك، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه، وعبس، وأعرض عنه، فنزلت هذه الآية، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه ويقول إذ رآه: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» ويقول له: «هل لك من حاجة؟» {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰ} أي أيّ شيء يجعلك يا أشرف الخلق دارياً بحال هذا الأعمى حتى تعرض عنه، لعله يتطهر بما يقتبس منك من الإثم، أو يتعظ، فتنفعه موعظتك، إن لم يبلغ درجة التطهر التام.

وقرأ عاصم بنصب «فتنفعه» على جواب «لعل»، {أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ} عن الإيمان والقرآن بما له من المال {فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ} أي تقبل عليه بوجهك وتميل إلى كلامه.

وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الضاد وقرأ أبو جعفر بضم التاء، أي فأنت يدعوك داع إلى التصدي له من الحرص على إسلامه {وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ} و «ما» إما نافية، والجملة حال من ضمير «تصدى»، أي والحال أنه ليس عليك بأس في عدم تطهره من الشرك بالإسلام، وإما استفهامية للإنكار أي وأيّ شيء عليك في كونه لا يتطهر من دنس الكفر،

{وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ} أي حال كونه يسرع في طلب الخير {وَهُوَ يَخْشَىٰ} من الله، أي وهو مسلم {فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ} أي تتشاغل بصناديد قريش. وقرأ طلحة بن مصرف «تتلهى». وقرأ أبو جعفر «تلهى»، أي يلهيك شأن الصناديد {كَلاَّ} أي لا تفعل مثل ذلك، أي وذلك محمول على ترك الأولى {إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ} أي إن القرآن موعظة {فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ} أي فمن رغب في القرآن اتعظ به، ومن لم يرده فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره {فَى صُحُفٍ} أي ذلك القرآن مثبت في صحف منتسخة من اللوح المحفوظ {مُّكَرَّمَةٍ} عند الله تعالى، {مَّرْفُوعَةٍ} في السماء السابعة، {مُّطَهَّرَةٍ} أي منزهة عن مساس أيدي الشياطين، {بِأَيْدِى سَفَرَةٍ} أي ملائكة يكشفون الوحي بين الله ورسله، أو يكتبون الكتب ناقلين من اللوح المحفوظ {كِرَامٍ} أي عند الله تعالى {بَرَرَةٍ} أي صادقين لله في

أعمالهم. وقال القرطبي: إن المراد بما في قوله تعالى: {لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ ٱلْمُطَهَّرُونَ} (الواقعة: 97) هؤلاء السفرة الكرام البررة، وقوله: {بِأَيْدِى} متعلق ب «مطهرة».

قال القفال: لما لم يمس الصحف إلا الملائكة المطهرون أضيف التطهر إليها لطهارة من يمسها. {قُتِلَ ٱلإِنسَٰنُ} أي لعن الكافر {مَآ أَكْفَرَهُ} أي أيّ شيء أكفره، وهو تعجب من إفراطه في الكفران، والتعجب بالنسبة للمخلوقين، والمعنى: اعجبوا من كفر الإنسان بجميع ما ذكرناه بعد هذا، {مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ} وهذا استفهام تقرير في التحقير، أي فليتفكر الإنسان في نفسه من أيّ شيء خلقه الله، ثم بيَّن الله له فقال: {مِن نُّطْفَةٍ} أي ماء حقير، {خَلَقَهُ} فمن كان أصله مثل هذا الشيء الحقير، فالتكبر لا يكون لائقاً به {فَقَدَّرَهُ} أي فهيأه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء، أو فقدره أطواراً نطفة، ثم علقة إلى أن تم خلقه، {ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ} أي ثم سهل الله خروجه من بطن أمه وكان رأس المولود في بطن أمه، من فوق ورجلاه من تحت، فإذا جاء وقت الخروج انقلب، فخروجه حياً من ذلك المنفذ الضيق من أعجب العجائب، أو ثم بين طريق الخير والشر التي تتعلق بالدنيا، والتي تتعلق بالدين، {ثُمَّ أَمَاتَهُ} بعد ذلك، {فَأَقْبَرَهُ} أي جعله الله ذا قبر يوارى فيه تكرمة له، {ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ} أي بعثه من القبر {كَلاَّ}، أي لا تتكبر، ولا تصر على إنكار التوحيد، وعلى إنكار البعث، أو حقاً يا محمد {لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ}، أي لم يعمل الإنسان الكافر بما أمره الله به من التأمل في دلائل الله والتدبر في عجائب خلقه وبينات حكمته، {فَلْيَنظُرِ ٱلإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِ} الذي جعله الله سبباً لحياته كيف دبر الله أمره، {{أَنَّا} أي الغيث على الأرض، {صَبَبْنَا}. قرأ عاصم وحمزة والكسائي «أنا» بفتح الهمزة على أنه بدل اشتمال من طعامه، لأن الماء سبب لحدوث الطعام، فهو مشتمل عليه. والباقون بالكسر على الاستئناف. وقرىء «إني» بالإمالة، أي كيف صببنا الماء صباً عجيبا {ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلأَرْضَ} بالنبات {شَقّاً} بديعاً لائقاً به

{فَأَنبَتْنَا فِيهَا} أي الأرض {حَبّاً}، وهو كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما، {وَعِنَباً} وهو غذاء من وجه وفاكهة من وجه، {وَقَضْباً}. قيل: هو كل ما يقطع من البقول.

وقال الحسن: هو العلف للدواب. وقال ابن عباس: هو الرطب فإنه يقطع من النخل، {وَزَيْتُوناً} وفيه إصلاح المزاج، {وَنَخْلاًوَحَدَآئِقَ غُلْباً} أي بساتين ملتفة الأشجار، أو طوال الأشجار، {وَفَٰكِهَةً} وهي ما تأكله الناس من ثمار الأشجار، {وَأَبّاً} وهو ما تأكله الدواب من الكلأ، {مَّتَٰعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَٰمِكُمْ} أي فعل الله ذلك تمتيعاً لكم ولمواشيكم، {فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ} أي صيحة النفخة الثانية التي تصم الآذان لشدتها، {يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ} و «يوم» إما منصوب بأعني تفسيراً ل «الصَّاخة»، أو بدل منها مبني على الفتح بالإضافة إلى الفعل على رأي الكوفيين، أي يعرض عن أخيه {وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَٰحِبَتِهُ وَبَنِيهِ} وفائدة هذا الترتيب كأنه قيل يوم يعرض المرء عن أخيه، بل عن أبويه اللذين هما أقرب من الأخ، بل عن الزوجة والولد اللذين تعلق القلب بهما أشد من تعلقه بالأبوين، وجواب

«إذا» محذوف تقديره: اشتغل كل امرىء بحال نفسه، ويدل عليه قوله تعالى: {لِكُلِّ ٱمْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ} أي يوم إذ تكون هذه الداهية {شَأْنٌ يُغْنِيهِ}، أي شغل يكفيه في الاهتمام به، أو عمل يصرفه عن قرابته كما قاله ابن قتيبة. وقرىء «يعنيه» بالياء المفتوحة والعين المهملة، أي يهمه، أي يوقعه في الهم، {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ} أي مضيئة من صلاة الليل كما قاله ابن عباس أو من آثار الوضوء كما قاله الضحاك أو بسبب الخلاص من علائق الدنيا والاتصال بالرحمة ومنازل الرضوان كما قاله الرازي {ضَاحِكَةٌ} أي معجبة بكرامة الله أو مسرورة بالفراغ من الحساب، {مُّسْتَبْشِرَةٌ} أي فرحة بما تشاهد من النعيم الدائم والثواب الجسيم، {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ} أي كدورة {تَرْهَقُهَا} أي تدركها عن قرب، {قَتَرَةٌ} أي سواد كالدخان {أُوْلَئِكَ} أي أصحاب هذه الوجوه {هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ} أي الجامعون بين الكفر بالله والكذب على الله.

سورة التكوير

مكية، تسع وعشرون آية، ومائة وأربع كلمات وخمسمائة وثلاثة وثلاثون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ} أي لفت أي صارت مختفية عن الأعين. وقيل: أي رميت عن الفلك. وعن ابن عباس رضي الله عنهما «تكويرها» إدخالها في العرش، {وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ}، أي تساقطت على وجه الأرض. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن النجوم قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور بأيدي ملائكة من نور، فإذا مات من في السموات ومن في الأرض تساقطت من أيديهم. {وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ} عن وجه الأرض بالرجفة، {وَإِذَا ٱلْعِشَارُ} أي النوق الحوامل التي هي أنفس ما يكون عند أهلها، {عُطِّلَتْ} أي تركت من غير راعٍ لاشتغال أربابها بأنفسهم. وقيل: أي وإذا السحب تعطلت عن الماء. وقرىء «عطلت» بالتخفيف، {وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ} أي جمعت من كل جانب لا للقصاص. وقيل: بعثت للقصاص إظهاراً للعدل.

قال قتادة: يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص، فإذا قضي بينها ردت تراباً فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم وإعجاب بصورته كالطاوس ونحوه. وقرىء «حشرت» بالتشديد، {وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ} أي ملئت من الماء، فيفيض بعضها إلى بعض، فتصير شيئاً واحداً، ثم تيبس البحار من الماء، ثم تقلب ناراً.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف الجيم، وهذه العلامات الستة يمكن وقوعها في أول زمان تخريب الدنيا. أما الستة الباقية فإنها مختصة بالقيامة وهي ما ذكر بقوله تعالى: {وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ} أي ردت الأرواح إلى أجسادها.

وقال ابن عباس: زوجت نفوس المؤمنين بالحور العين، وقرنت نفوس الكافرين بالشياطين.

وقال الزجاج: قرنت النفوس بأعمالها، {وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ} أي وإذا البنت المدفونة حية سئلت تبكيتاً لمن دفنها في القبر وهي حية

{بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ}، أي هي وذلك كأن قيل للموءودة إن القتل لا يجوز إلا لذنب عظيم، فما ذنبك أيتها البنت، فكان جوابها: إني قتلت بغير ذنب، فيفتضح القاتل. وقرىء «قتلت» بكسر التاء للمخاطبة مع قراءة «سئلت» بقراءة الجمهور. وقرىء «سألت» بالبناء للفاعل، أي خاصمت أباها، أو سألت الله تعالى. وهذه القراءة مع قراءة «قتلت» بضم التاء للمتكلم، وبسكونها على التأنيث فالقراءات الشاذة ثلاثة، {وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ} أي وإذا صحف الأعمال فرقت بين أصحابها عند الحساب، وتطايرت في الأكف.

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بتخفيف الشين. والباقون بتشديدها، {وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ} أي أزيلت عما فوقها، وهي الجنة وعرش الله. وقرأ ابن مسعود «قشطت»، {وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ} أي أوقدت إيقاداً شديداً. وقرأ نافع وابن ذكوان وعاصم بتشديد العين. والباقون بتخفيفها {وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ}، أي قربت من المتقين.

وقال عبد الله بن زيد: أي زينت {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ} أي ما قدمت من خير أو شر فإن الأعمال لما عملتها النفس فكأنها أحضرتها في الموقف، {فَلاَ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ} «لا» زائدة، أي فأقسم بالكواكب الرواجع من آخر الفلك إلى أوله التي تجري مع الشمس والقمر التي تختفي تحت ضوء الشمس. وهي هذه الأنجم الخمسة: بهرام، وزحل، وعطارد، والزهرة، والمشتري، ليس في الكواكب شيء يقطع المجرة غيرها، كما أخرجه ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب. {وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ}، أي ذهب، {وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} أي أضاء {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} أي إن هذا الذي أخبركم به محمد من أمر الساعة على ما ذكر في هذه السورة ليس بكهانة، ولا ظن، ولا افتعال، إنما هو قول جبريل أتاه به وحياً من عند الله تعالى أو أن القرآن لقول جبريل نزل به إلى محمد من جهة الله تعالى، فهو رسول الله إلى الأنبياء، وهو كريم لأنه يعطي أفضل العطايا وهو الهداية {ذِى قُوَّةٍ} أي شدة.

روي أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل: «ذكر الله قوتك فماذا بلغت؟» قال: رفعت قريات قوم لوط الأربع على قوادم جناحي حتى إذ سمع أهل السماء نباح الكلاب وأصوات الدجاج قلبتها. وذكر مقاتل أن الأبيض وهو شيطان قصد أن يفتن النبي صلى الله عليه وسلم فدفعه جبريل دفعة رفيقة وقع بها من مكة إلى أقصى الهند، {عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ} أي ذي جاه عند الله تعالى، فإنه يعطي ما يسأل، وهذه العندية عندية إكرام وتشريف، لا عندية مكان وجهة، {مُّطَٰعٍ ثَمَّ} أي في السموات فتطيعه الملائكة، فإنهم يصدرون عن أمره، ويرجعون إلى رأيه {أَمِينٍ} على وحي الله ورسالته، قد عصمه الله من الخيانة والزلل،

{وَمَا صَٰحِبُكُمْ} أي نبيكم محمد يا معشر قريش {بِمَجْنُونٍ}، كما زعمتم. والمقصود: من عدَّ فضائل جبريل واقتصار النبي صلى الله عليه وسلم على نفي الجنون ردّ قول الكفرة في حقه صلى الله عليه وسلم،

إنما يعلمه بشر افترى على الله كذباً، أم به جنة لا الموازنة بينهما ولا تفضيل جبريل على النبي، ثم إنك إذا أمعنت النظر وقفت على أن إجراء تلك الصفات على جبريل في هذا المقام ادماج لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه صلى الله عليه وسلم بلغ من علو المنزلة عند الله تعالى بجعل السفير بينه وبينه تعالى، مثل هذا الملك المقرب، فهذه الصفات التي لجبريل رفع منزلة له صلى الله عليه وسلم، {وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ} أي وبالله لقد رأى رسول الله جبريل عليهما الصلاة والسلام بمطلع الشمس الأعلى على صورته التي خلق عليها، {وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ}.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالظاء المشالة أي وما محمد بمتهم في القرآن، بل هو ثقة فيما يؤدى عن الله تعالى. وقرأ الباقون بالضاد أي وما محمد ببخيل بالقرآن، بل يخبر بما في القرآن من أخبار الغيب، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده حتى يأخذ عليه حلواناً، {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ} أي وما القرآن بقول مسترق للسمع اسمه مرمى، فيلقيه على محمد، وهذا نفي لقول أهل مكة، إن هذا القرآن يجيء به شيطان فيلقيه على لسان محمد وأنه كهانة وسحر، {فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ} أي فمن أيّ طريق تسلكون في إنكاركم القرآن أمن نسبته للجنون أو الكهانة، أو السحر، أو الشعر، وهذا استضلال لهم كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً أين تذهب؟ {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ}، أي ما القرآن إلا عظة للإنس والجن، {لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} أي لمن شاء منكم الاستقامة بتحري الحق وملازمة الصواب، فإن القرآن إنما ينتفع به من شاء أن يستقيم، {وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ}، أي إلا أن يشاء الله أن يعطيه تلك المشيئة، ففعل الاستقامة موقوف على إرادة الاستقامة، وهذه الإرادة موقوفة الحصول على أن يريد الله أن يعطيه تلك الإرادة، فأفعال العباد في طرفي ثبوتها وانتفائها موقوفة على مشيئة الله.

سورة الانفطار

مكية، تسع عشرة آية، وثمانون كلمة، وثلاثمائة وسبعة وعشرون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ} أي انشقت لنزول الملائكة، {وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ} أي تساقطت متفرقة على وجه الأرض، {وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ} أي فتح بعضها إلى بعض، فاختلط العذب بالأجاج، وصارت البحار بحراً واحداً.

وقرأ مجاهد «فجرت» على البناء للفاعل والتخفيف، أي تجاوز بعضها إلى بعض. وقرأ مجاهد أيضاً، والربيع بن خثيم، والزعفراني والثوري «فجرت» مبنياً للمفعول ومخففاً، أي غير بعضها ببعض لزوال البرزخ، {وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ} أي قلب أسفلها أعلاها وأخرج ما فيها من الموتى أحياء {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ} أي أدت من طاعة، {وَأَخَّرَتْ} أي ضيعت،

وذلك عند نشر الصحف. {يٰأَيُّهَا ٱلإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ} أي ما الـذي خدعك وسوَّل لك الباطل، حتى تركت الواجبات، وأتيت بالمحرمات.

وقرأ سعيد بن جبير والأعمش «ما أغرَّك» رباعياً، فاحتمل أن تكـون «ما» استفهامية، وأن تكون تعجبيـة، أي أيّ شـيء جعلـك آمنـاً مـن عقـاب ربك، أو شيء عظيم يتعجب منه أدخلـك فـي غـرة، أي أمِـن مَـن العـذاب؟ {ٱلَّذِى خَلَقَكَ} نسمة من نطفة {فَسَوَّاكَ} أي جعلك سالم الأعضاء مهيـأة لمنافعها {فَعَدَلَكَ}.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف الدال أي عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت كما قاله أبو علي الفارسي أو فصرفك إلى أي صــورة شاء. وقرأ الباقون بالتشديد أي صيَّرك متناسب الأعضاء، فلم يجعل إحــدى اليدين أطول، ولا إحدى العينين أوسع.

وقال عطاء عن ابن عباس: أي جعلك معتدل القامة حسن الصورة، لا كالبهيمة المنحنية {فِىۤ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ} و «ما» زائـدة، و «شـاء» صفة ل «صورة»، و «ركبك» بيان لقوله تعالى: {فَعَدَلَكَ} أي وضـعك فـي صورة اقتضتها مشيئته من حسن وقبح، وطول، وقصر، وذكورة، وأنوثة

{كَلاَّ}، أي ارتدعوا عن الاغترار بكرم الله، وإنكم لا ترتدعون عن ذلك، {بَلْ تُكَذِّبُونَ} يا معشر قريش {بِٱلدِّينِ}، أي بالجزاء علـى الأعمـال، {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ} حال من فاعل تكـذبون، أي تكـذبون بـالجزاء والحـال أن عليكم من قبلنا لحافظين لأعمالكم، {كِرَاماً} عندنا {كَٰتِبِينَ} لهذه الأعمال في الصحف، كما تكتب الشهود منكم العهود ليقع الجزاء على غاية التقويم، {يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} من الأفعال، قليلاً وكثيراً، ويضبطونه نقيراً وقطميراً لتجازوا بذلك، {إِنَّ ٱلأَبْـرَارَ} أي الصـادقين فـي إيمـانهم {لَفِـى نَعِيـمٍ}، أي لفي جنة دائم نعيمهـا، {وَإِنَّ ٱلْفُجَّـارَ} أي الكـافرين المكـذبين بيـوم الـدين {لَفِى جَحِيمٍ} أي في نار عظيمة، {يَصْلَوْنَهَا} أي يـدخلونها {يَـوْمَ ٱلـدِّينِ} أي يوم الحساب، {وَمَا هُمَ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ} طرفة عين حتى قبل الدخول فيها فإنهم يجدون سمومها في قبورهم كما قال النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم: «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيـران». {وَمَـآ أَدْرَاكَ مَـا يَوْمُ ٱلدِّينِ ثُمَّ مَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ} أي أيّ شيء عجيـب هـو فـي الهـول والفظاعة جعلك دارياً يوم الدين، و «ما» الاستفهامية خبر ل «يوم الدين»، فإن مدار الإفادة هو الخبر، {يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً}.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع «يوم» وقرأ أبو عمرو في رواية «يوم» مرفوعاً منوناً على جعل الجملة بعده نعتاً له، والعائد محـذوف أي لا تملـك فيه. وقرأ الباقون يوم بالفتح، وهي إما فتحة إعراب بإضمار اذكر، أو فتحــة بناء وإنما بني لإضافته للفعل، وإن كان معربـاً علـى رأي الكـوفيين ويكـون خبراً لمبتدأ مضمر.

وقال أبو علي: إن اليوم لما جرى في أكثر الأمر ظرفاً فاترك على حالة الأكثرية، ومما يقوى النصب قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُـونُ ٱلنَّاسُ} (القارعة: 2،3) وقوله تعالى: {يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَـوْمُ ٱلـدّينِ يَـوْمَ هُـمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ} (الذاريات: 21،31).

قال الواحدي: والمعنى أن الله تعالى لم يملك في ذلك اليوم أحداً شيئاً من الأمور كما ملكهم في دار الدنيا، {وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}.

قال الواسطي: قوله: {يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً} إشارة إلى فناء غير الله تعالى وهناك تذهب الرسالات والكلمات. وقوله: {وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} إشارة إلى أن البقاء لله والأمر كذلك في الأزل، وفي اليوم وفي الآخرة، ولم يتغير من حال إلى حال فالتفاوت عائد إلى أحوال الناظر لا إلى أحوال المنظور إليه، فالكاملون لا تتفاوت أحوالهم بحسب تفاوت الأوقات.

سورة التطفيف

وتسمى سورة المطففين، نزلت بين مكة والمدينة في مهاجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فاستتمت بالمدينة، هي ست وثلاثون آية، مائة وتسع وتسعون كلمة، سبعمائة وثمانون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ} أي شدة العذاب للناقصين في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية.

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة، وكان أهلها من أخبث الناس كيلاً، فنزلت هذه الآية، فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

قال الفراء: فهم أوفى الناس كيلاً إلى يومهم هذا، وقال قوم: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وبها رجل يعرف بأبي جهينة واسمه عمرو كان له صاعان، يأخذ بواحد ويعطي بآخر فنزلت: {ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ} أي إذا اكتالوا من الناس مكيلهم بحكم الشراء ونحوه، يأخذونه وافياً وافراً حسب ما أرادوا بأي وجه تيسر من وجوه الحيل، وكانوا يفعلونه بكبس المكيل وتحريك المكيال، والاحتيال في ملئه. {وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ}، أي وإذا كالوا مكيلهم أو وزنوا موزونهم للبيع ونحوه ينقصون في الكيل والوزن. ويروى عن عيسى بن عمر وحمزة أنهما كانا يجعلان الضميرين توكيداً لما في كالوا ووزنوا، ويقفان عند الواوين وقيفة يبينان بها ما أرادوا، أي إذا كالوا هم لغيرهم، أو وزنوا هم لغيرهم ينقصون، وإثبات الألف قبل هم لو لم يكن معتاداً في زمان الصحابة لمنع من إثباتها في سائر الأعصار، {أَلا يَظُنُّ أُوْلَٰئِكَ} أي ألا يوقن أولئك المطففون بالكيل والوزن {أَنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَلِيَوْمٍ عَظِيمٍ} أي شديد هوله،

{يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ} من قبورهم {لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ}، أي لحكمه.

روي عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه». وقرىء «يوم» بالنصب والجر، فالنصب منصوب بقوله تعالى: {مَّبْعُوثُونَ}، أو بإضمار أعني والجر بدل من «يوم عظيم»، أو هو حالة النصب مبني على الفتح لإضافته إلى الفعل وإن كان مضارعاً كما هو رأي الكوفيين، فهو مرفوع المحل خبراً لمبتدأ مضمر، أو مجرور المحل بدلاً من «يوم عظيم» ويؤيده القراءة بالرفع والجر {كَلاَّ}

أي ارتدعوا عن التطفيف والغفلة عن ذكر البعث، وعلى هذا المعنى يوقف على «كلا»، أو «كلا» بمعنى حقاً فلا يوقف عليه، وكذا جميع ما يأتي من «كلا» في هذه السورة {إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ}، أي إن كتابة أعمال الكفار لفي سجين، وهو موضع في الأرض السابعة السفلى، {وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ} وهذا تعظيم لأمر سجين، {كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ} أي إن كتاب الفجار كتاب معلم فيعلم من رآه أنه لا خير فيه، {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ} أي الجزاء، {وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ} أي بذلك اليوم {إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ} أي متجاوز عن المنهج الحق، {أَثِيمٍ} أي مبالغ في ارتكاب الإثم {إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا} أي القرآن {قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ}، أي هذه إخبار الأولين فإن محمداً أخذ عنهم لا من الله تعالى فينكر النبوة، {كَلاَّ} أي حقاً {بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} أي ليس الأمر كما يقوله الكافر من أن ذلك أساطير الأولين، بل غطى على قلوبهم أفعالهم الماضية من الكفر والمعاصي قال صلى الله عليه وسلم: «إن العبد كلما أذنب ذنباً حصل في قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه». {كَلاَّ} أي حقاً يا محمد {إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ} أي إن المكذبين بيوم الدين لممنوعون يوم القيامة عن النظر إلى ربهم، والمؤمنون لا يحجبون عن النظر إلى ربهم، {ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ} أي لداخلو النار العظيمة، {ثُمَّ} إذا دخلوها {يُقَالُ} لهم من جهة الزبانية {هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} أي هذا العذاب هو الذي كنتم تكذبون به في الدنيا، والآن قد عاينتموه فذقوه، {كَلاَّ} أي لا تكذبوا البعث وكتاب الله أو حقاً، {إِنَّ كِتَٰبَ ٱلأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ} أي إن كتابة أعمال الصادقين في إيمانهم لفي عليين، {وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ} وهذا تنبيه له صلى الله عليه وسلم على أنه معلوم له، {كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ} أي إن كتاب أعمالهم موضوع في عليين مكتوب في لوح من زبرجد أخضر، معلق تحت عرش الرحمن، {يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ} أي يشهد الملائكة المقربون ذلك الكتاب إذا صعد به إلى عليين كرامة للمؤمنين، أو يشهدون بما فيه يوم القيامة لتعظيمه، {إِنَّ ٱلأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ} أي في جنة دائم نعيمها {عَلَى ٱلأَرَآئِكِ} أي الأسرة في الحجال، {يَنظُرُونَ} إلى ما شاءوا مدّ أعينهم إليه من أنواع النعيم والعذاب للكفار، {تَعْرِفُ} يا من يتأتى منك المعرفة {فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ} أي بهجة التنعم ورونقه من النور والضحك.

وقرأ أبو جعفر وابن أبي إسحاق، وشيبة، وطلحة، ويعقوب، والزعفراني تعرف مبنياً للمفعول ورفع نضرة وعلي بن زيد كذلك إلا أنه قرأ «يعرف» بالياء التحتية،

{يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ} أي شراب خالص {مَّخْتُومٍ}، أي يختم رأس قارورة ذلك الرحيق أوله ختام أي عاقبة {خِتَٰمُهُ مِسْكٌ} أي الذي يختم به رأس الإناء هو المسك، أو عاقبته المسك أي يختم له برائحة المسك. وقرأ الكسائي «خاتمه» بفتح التاء بعد الألف. وروي عنه أيضاً كسر التاء، والمعنى: خاتم رائحة ذلك الشراب مسك، {وَفِى ذَٰلِكَ} أي الرحيق {فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ} أي فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله تعالى، {وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ} أي وما يمزج به ذلك الرحيق من ماء تسنيم. سميت هذه العين بالتسنيم لأنها أرفع شراب في الجنة، أو لأنها تأتيهم من

فوق {عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ}، وهم أفضل أهل الجنة، كما أن التسنيم هو أفضل أنهار الجنة. قال ابن عباس: أشرف شراب أهل الجنة هو تسنيم، لأنه يشربه المقربون صرفاً ويمزج لأصحاب اليمين، {إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ} أي إن أكابر المشركين كأبي جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل السهمي، كانوا يضحكون من أجل فقراء المؤمنين كعمار، وصهيب، وبلال، وخباب، {وَإِذَا مَرُّواْ} أي فقراء المؤمنين يأتون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم {بِهِمْ}، أي بالمشركين وهم في أنديتهم {يَتَغَامَزُونَ}، أي يشيرون إليهم بالأعين استهزاء، ويعيبونهم ويقولون: انظروا إلى هؤلاء يتعبون أنفسهم ويحرمونها لذاتها، ويخاطرون بأنفسهم في طلب ثواب لا يتيقنونه. قيل: جاء علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون، وضحكوا، وتغامزوا، ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا: رأينا اليوم الأصلع، فضحكوا منه، فنزلت هذه الآية قبل أن يصل علي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، {وَإِذَا ٱنقَلَبُوۤاْ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ} أي وإذا رجع الكفار من مجالسهم إلى أهلهم رجعوا معجبين بما هم عليه من الشرك والتنعم بالدنيا، أو ملتذين بذكر المسلمين بالسوء.

وقرأ عاصم في رواية حفص عنه «فكهين» بغير ألف في هذا الموضع وحده والباقون بالألف، {وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوۤاْ إِنَّ هَـٰؤُلاَءِ لَضَالُّونَ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ} أي وإذا رأى المجرمون المؤمنين أينما كانوا قالوا: إن هؤلاء المؤمنين على ضلال في تركهم التنعم الحاضر بسبب طلب ثواب لا يدري هل له وجود أم لا؟ والحال أن الله تعالى لم يبعث هؤلاء الكفار رقباء على المؤمنين يحفظون عليهم أحوالهم بل إنما أمروا بإصلاح أنفسهم، {فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ} أي فيوم القيامة يضحك المؤمنون على الكفار حين يرونهم مغلولين أذلاء {عَلَى ٱلأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ}، وهذا حال من فاعل «يضحكون»، أي يضحك المؤمنون على الكفار ناظرين حال كونهم على سرر الحجال إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر، {هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ}؟ وهذا على سبيل التهكم، والمعنى: كأنه تعالى يقول للمؤمنين: هل جازينا الكفار على عملهم الذي كان من جملته ضحكهم بكم واستهزاؤهم بشريعتكم كما جازيناكم على أعمالكم الصالحة فيكون هذا القول زائداً في سرورهم.

سورة الانشقاق

مكية، خمس وعشرون آية، مائة وتسع كلمات، سبعمائة وثلاثون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ} من المجرة بالغمام، والمجرة: هي البياض المعترض في السماء {وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا} أي انقادت لتأثير قدرته، {وَحُقَّتْ} أي وهي حقيقة بأن تنقاد، {وَإِذَا ٱلأَرْضُ مُدَّتْ} مد الأديم العكاظي وزيدت في سعتها، {وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا} أي رمت بما في جوفها من الموتى والكنوز،

{وَتَخَلَّتْ} أي وخلت غاية الخلو حتى لـم يبـق فـي باطنهـا شـيء، {وَأَذِنَـتْ لِرَبِّهَا} أي انقادت له في الإلقاء والتخلي، {وَحُقَّتْ} أي وهي حقيقـة بـذلك وقوله تعالى: {وَأَذِنَتْ لِرَبّهَـا} يـدل علـى نفـوذ القـدرة فـي شـق السـماء وبسط الأرض، وإخلاء ما فيها من غير ممانعة أصلاً، وجواب «إذا» محـذوف تقديره: علمت نفس عملها، أو ليذهب الـوهم إلـى كـل شـيء، وإن جعلـت غير شرطية فهو منصوب باذكر مقدراً. {يٰأَيُّهَا ٱلإِنسَٰنُ إِنَّـكَ كَـادِحٌ إِلَـىٰ رَبِّـكَ كَدْحاً فَمُلَٰقِيهِ} أي يا ابن آدم إنك متعب النفس في العمـل فـي دنيـاك تعبـاً حتى ترجع به إلى ربك في الآخرة فملاق ذلك العمل خيراً كان أو شـراً فـي الكتاب الذي فيه بيانه، {فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَـبُ حِسَـاباً يَسِيراً وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً} أي فأما مـن أعطـي كتـاب عملـه الـذي كتبته الملائكة بيمينه من أمامه، فسوف يحاسب حساباً هينـاً، وهـو العـرض ويرجع إلى عشيرته المؤمنين مبتهجاً بحاله قائلاً: {هَاؤُمُ}. {وَأَمَّا مَنْ أُوتِـىَ كِتَٰبَهُ وَرَآءَ ظَهْـرِهِ فَسَـوْفَ يَـدْعُو ثُبُـوراً} أي وأمـا مـن أعطـي كتـاب عملـه بشماله من وراء ظهره فسوف يتمنـى الهلاك وينـاديه بقـوله: ثبـوراه تعـال وهـذا أوانـك {وَيَصْـلَىٰ سَـعِيراً}، أي ويـدخل نـاراً وقـوداً. وقـرأ أبـو عمـرو وعاصم بفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام. وقيل: قرأ عاصـم وحمـزة وأبو عمرو بضـم اليـاء وسـكون الصـاد. والبـاقون بضـم اليـاء وفتـح الصـاد وتشـديد اللام، {إِنَّـهُ كَـانَ فِى أَهْلِـهِ} أي فيمـا بيـن عشـيرته فـي الـدنيا {مَسْرُوراً} بما هو عليه من الكفر بالله والتكذيب بالبعث يضحك ممن آمن بالله وصدق بالحساب. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنـه قـال: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

{إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ} أي إنه ظن أنه لن يرجع في الآخرة إلى خلاف ما هو عليه في الدنيا من السرور والتنعم {بَلَىٰ} إن الله تعالى يبـدل سـروره بغم لا ينقطع وتنعمه ببلاء لا يزول، {إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً} أي إن ربـه كـان عالماً بما يعمله من الكفر والمعاصي فلم يهملـه بـأن لا يعـاقبه علـى سـوء أعماله. وقيل: نزلت هاتان الآيتـان فـي أبـي سـلمة بـن عبـد الأسـد وأخيـه الأسود، {فَلاَ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ} وهو حمـرة المغـرب بعـد غـروب الشـمس، وهي الأثر الباقي في الأفق من الشمس والفاء في جـواب شـرط مقـدر، و «لا» زائدة أو نفي وهو رد لكلام قبل القسـم، أي إذا عرفـت هـذا فلا تظـن عدم الرجوع إلى الله في الآخرة، {وَٱلَّيْلِ وَمَـا وَسَـقَ} أي جمـع فـإذا سـتر الليل بظلمته الجبـال والبحـار والأشـجار والحيوانـات فقـد جمعه ا وحمله ا، {وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ} أي تكامل وذلك في ثلاث ليال: ليلة ثلاثة عشر، وليلــة أربعة عشر، وليلة خمسة عشر. {لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَـن طَبَـقٍ} أي لتحـولن يـا أيها الإنسان حالاً بعد حال، وذلك من حين خلقهم الله إلـى أن يموتـوا ومـن حين موتهم إلى أن يدخلوا الجنة، أو النار.

وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بفتـح البـاء الموحـدة علـى خطـاب الإنسان في «يا أيها الإنسان». والمعنى: كخطاب الجنس في قراءة العامة أو على خطاب الرسول، والمعنى: لتصعدن يا أشرف الرسل طبقاً مجاوزاً لطبق في ليلة المعراج أي من سماء إلى سماء، أو لتركبن حال ظفر وغلبة

بعد حال خوف وشدة. وقرىء بكسر الباء على خطاب النفس، أي لتركبن أيها النفس طريقة أمة من الناس بعد أمة.

وقرىء «ليركبن» بالياء على المغايبة، وفتح الباء، أي ليركبن هذا المكذب بيوم الدين حالاً بعد حال من حين يموت إلى أن يدخل النار، {فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} أي إذا كان حالهم كما ذكر فأي شيء ثبت لكفار مكة حال كونهم غير مؤمنين ويقال: فأيّ شيء لبني عبدياليل الثقفي يمنعهم من الإيمان، وكانوا ثلاثة مسعود، وحبيب، وربيعة. فأسلم منهم بعد ذلك حبيب وربيعة. {وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لاَ يَسْجُدُونَ} أي لا يخضعون بأن يؤمنوا به، ولا يسجدون لتلاوته عند آيات مخصوصة.

روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ذات يوم {لاَ تُطِعْهُ وَ سْلْجُدْ وَ ٱقْتَرِب} (العلق: 91). فسجد هو ومن معه من المؤمنين، وقريش تصفق فوق رؤوسهم وتصفر، فنزلت هذه الآية، واحتج أبو حنيفة بهذه على وجوب السجدة. وعن الحسن هي غير واجبة، {بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ} بالقرآن الناطق بأحوال القيامة، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته إما للحسد وإما لتقليد الأسلاف، وإما لخوف فوت مناصب الدنيا ومنافعها، {وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ} أي بما يضمرون في قلوبهم من التكذيب، فهو مجازيهم عليه في الدنيا والآخرة، {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِلاَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ} أي أخبر يا أشرف الخلق من لا يؤمن بعذاب مؤلم إلا من تاب منهم {لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}، أي غير منقوص، ولا مكدر ولا مقطوع ويقال: غير منقوص حسناتهم بعد الهرم والموت.

سورة البروج

مكية، ثنتان وعشرون آية، مائة وتسع كلمات، أربعمائة وثمانية وخمسون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ} أي ذات المحال الاثني عشر، والطرق التي تسير فيها الكواكب السبعة {وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ}، وهو يوم القيامة فإن الله تعالى وعد أهل السماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه، {وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ} فالشاهد من يحضر في ذلك اليوم من الخلائق، والمشهود ما في ذلك اليوم من العجائب. {قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلأُخْدُودِ} وهذا دليل جواب قسم محذوف، والتقدير: أقسم بهذه الأشياء إن كفار مكة ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود، وقيل: إن الجواب قوله تعالى: {إِنَّ بَطْشَ رَبّكَ لَشَدِيدٌ} (البروج: 21). والأخدود شق مستطيل في الأرض كالنهر، وذكر أن طوله أربعون ذراعاً وعرضه اثنا عشر ذراعاً. وأصحاب الأخدود هم أناس كانوا بمدارع اليمن كما قاله قتادة عن علي، أو هم الحبشة كما قاله الحسن عن علي أيضاً. {ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ} من النفط، والزفت، والحطب.

وقرىء بضم الواو بمعنى الاتقاد وقوله: «النار» بدل اشتمال من الأخدود، ثم إن أصحاب الأخدود إما الجبابرة الذين قتلوا المؤمنين، فحينئذ إن قوله تعالى: {قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلأُخْدُودِ} إما خبر فالمعنى: أن أولئك

القاتلين قتلوا بالنار على القول بأن الجبابرة لما أرادوا قتل المؤمنين بالنـار عادت النار عليهم فقتلتهم فهم في تلـك الحالـة كـانوا ملعـونين، فـالمعنى: أنهم خسروا الدنيا والآخرة، أو دعاء عليهم أي لعـن أصـحاب الأخـدود، وإمـا المؤمنون المقتولون بـالإحراق بالنـار. فيكـون قـوله تعـالى: لعـن أصـحاب الأخدود خبراً لادعاء. {إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ} ظرف ل «قتـل» أي لعنـوا حيـن كانوا جالسين على شفير النار يعذبون المؤمنين، فإن النـار ارتفعـت إليهـم فهلكوا، أو يقال لعنوا إذ المؤمنـون مطرحـون علـى النـار، {وَهُـمْ عَلَـىٰ مَـا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ} أي وهؤلاء الكفار مع ما يفعلـون بـالمؤمنين مـن الإحراق بالنار حضور لم تحصل في قلـوبهم، شـفقة ولا رأفـة لغايـة قسـوة قلوبهم والوقف هنا تام إن جعل جواب القسم.

{قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ} بتقدير لقد وجائزاً لطول الكلام إن جعل جواب القسم {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ} (البروج: 21).

روى مسلم عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كان الملك فيمن قبلكم ساحر فلما كبر قال للملك: إني قـد كـبرت فـابعث إلـي غلاماً أعلمه السحر فبعث إليه غلاماً ليعلمه، وكان في سلوك طريقه راهب فسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب فقعد إليه فـإذا أتـى الساحر ضربه وإذا رجع من عند الساحر قعد إلى الراهب وسمع كلامه فـإذا أتى أهله ضربوه فشكى ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشـيت السـاحر فقـل حبسني أهلي وإذا خشيت أهلك فقل حبسـني السـاحر، ثـم رأى الغلام فـي طريقه ذات يوم حية قد حبست الناس فأخـذ حجـراً وقـال: اللهـم إن كـان الراهب أحب إليك من الساحر فقوني على قتل هذه الحيـة بواسـطة رمـي الحجـر إليهـا، ثـم رمـى الحجـر فقتلهـا، ومضـى النـاس فاشـتغل بطريقـة الراهب، ثم صار إلى حيث يبرىء الأكمه والأبرص ويداوي الناس مـن سـائر الأدواء فسمع جليس للملك وكان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال: هذا لك إن شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحد إنما يشفي الله تعالى، فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله تعالى، فأتى الملك فجلس كمـا كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ فقال: ربـي قـال: أولـك رب غيري؟ قال: ربي وربك اللـه، فغضـب فلـم يـزل يعـذبه حـتى دل علـى الغلام، فجيـء بـالغلام فلـم يـزل يعـذبه حـتى دل علـى الراهـب، فأحضـر الراهب، فقال له: ارجع عن دينك، فـأبى فقـد بالمنشـار مـن مفـرق رأسـه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك، فقـال لـه: ارجـع عـن دينـك فـأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام، فقال له: ارجع عن دينـك، فـأبى، فقـال لأصـحابه: اذهبـوا بـه فاصـعدوا بـه الجبل، فإذا بلغتم ذروته فاطرحوه إن لم يرجع عن دينه، فذهبوا به وصعدوا به الجبل، فقال: اللهـم اكفنيهـم بمـا شـئت فرجـف بهـم الجبـل، فسـقطوا وهلكوا ونجا ومشى إلى الملك، فقال له الملك: مـا فعـل أصـحابك، فقـال: كفانيهم الله، فقال لأصـحابه اذهبـوا بـه إلـى البحـر فـاحملوه فـي قرقـورة فتوسطوا به البحر فاقذفوه إن لم يرجع عـن دينـه، فـذهبوا بـه فلجـوا بـه ليغرقوه فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا ونجا ومشى إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك فقـال: كفـانيهم اللـه،

فقال للملك: لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد وتصلبني على جـذع وتأخذ سهماً من كنانتي، وتقول: باسم الله رب هـذا الغلام، ثـم ترمينـي بـه ففعل الملك ذلك فرماه بالسهم فوقع في صدغه فوضع يـده عليـه، ومـات، فقال الناس آمنا برب هذا الغلام، فقيل للملـك: نـزل بـك مـا كنـت تحـذره، فأمر بأخاديد في أفواه السكك، وأوقدت فيها النيران فمن لـم يرجـع منهـم عن دينه طرحه فيها حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعسـت أن تقـع فيهـا، فقال الصبي: يا أماه، اصبري فإنك على الحق فاقتحمت».

وعن ابن عباس قال: كان بنجران بلد باليمن ملك من ملوك حمير يقال له يوسف ذو نواس بن شرجيل في الفترة قبـل أن يولـد النـبي صـلى اللـه عليه وسلم بسبعين سنة، وكان في بلاده غلام يقال له عبـد اللـه بـن تـامر، وكان أبوه سلمه إلى معلم يعلمه السحر فكره ذلك الغلام ولم يجد بداً مـن طاعة أبيه، فجعل يتردد إلى المعلم، وكان في طريقه راهب حسن الصوت، فأعجبه ذلك، فقعد إليه، وسمع كلامه ذاهباً، وراجعاً فـدعا النـاس إلـى ديـن عيسى عليه السلام، فأجابوه فسار إليه ذو نواس اليهودي بجنود مـن حميـر فخيره بين النار واليهودية، فأبى إلى أن قال الغلام للملك: إنك لا تقدر على قتلي إلا أن تفعل ما أقول، قال: فكيف أقتلـك؟ قـال: تجمـع أهـل مملكتـك وأنت على سريرك فترميني بسهم على اسم إلهـي، ففعـل الملـك، فقتلـه، فقال الناس: لا إله إلا إله عبد الله بن تـامر لا ديـن إلا دينـه، فغضـب الملـك وأغلق باب المدينة وأخذ أفواه السكك وجعله أخدوداً وملأه ناراً فمـن رجـع عن الإسلام تركه، ومن قال ديني دين عبد الله بن تـامر ألقـاه فـي الأخـدود وأحرقه، وكان في مملكته امـرأة فأسـلمت ولهـا أولاد ثلاثـة أحـدهم رضـيع فقال لها الملك: ارجعي عن دينك وإلا ألقيتك وأولادك في النار، فأبت فأخذ ابنها الأكبر فألقاه في النار ثم قال لها: ارجعي فأبت، فأخـذوا الصـبي منهـا ليلقوه في النار فهمت المرأة بالرجوع فقال لها الصبي: يـا أمـاه لا ترجعـي عن الإسلام فإنك على الحق، ولا بأس عليك فألقى الصبي في النار وألقيت أمه عقبه.

وعن وهب بن منبه: أحرق منهم اثني عشر ألفاً في الأخاديد، ثم غلب أرياط على اليمن فخرج ذو نواس هارباً واقتحم البحر بفرسه، فغرق. وقال محمد ابن إسحق، عن عبد الله بن أبي بكـر: إن خربـة احـترقت فـي زمـن عمر، فوجدوا عبد الله بن تامر واضعاً يده على ضربة في رأسه إذا أميطت يده عنها أنبعت دماً وإذا تركت رجعت إلى مكانها، وفي يده خاتم من حديـد فيه ربي الله فبلغ ذلك عمر، فكتب أن أعيدوا عليه الذي وجدتم عليه.

وروي عن علي أنه قال: حين اختلفوا في أحكام المجوس: هم أهـل كتاب، وكانوا متمسكين بكتابهم، وكانت الخمر قد أحلت لهم، فتناولها بعض ملوكهم، فسكر، فوقع على أخته فلما صحا ندم وطلب المخرج، فقالت له: المخرج أن تخطب الناس فتقول يا أيها الناس إن الله تعالى قـد أحـل لكـم نكاح الأخوات، ثم تخطبهم بعد ذلك فتقول: إن الله قد حرمه، فخطب فلـم يقبلوا منه ذلك، فقالت: أبسط فيهم السـوط، ففعـل فلـم يقبلـوا، فقـالت: أبسط فيهم السيف ففعـل، فلـم يقبلـوا، فـأمرته بالأخاديـد وإيقـاد النيـران وطرح من أبى فيها. فهـم الـذين أرادهـم اللـه تعـالى بقـوله تعـالى: {قُتِـلَ

أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ}، {وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ} أي وما عابوا من المؤمنين إلا إيمانهم {بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ} أي القادر الذي لا يغلب، والقاهر الذي لا يدفع {ٱلْحَمِيدِ} أي الذي يستحق الثناء على ألسنة عباده المؤمنين {ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ}، وخزائن المطر، والنبات {وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ} وهذا وعد عظيم للمطيعين ووعيد شديد للمجرمين {إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ} أي إن الذين أحرقوهم بالنار كما قاله ابن عباس، ومقاتل أوأن الذين محنوهم في دينهم بالأذية والتعذيب ليرجعوا عنه، {ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ} عن كفرهم وفتنتهم {فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ} أي فلهم في الآخرة عذاب بسبب كفرهم، وعذاب زائد على عذاب الكفر بسبب إحراق المؤمنين بالنار، أو عذاب برد، وعذاب إحراق، أو فلهم في الآخرة عذاب جهنم، وفي الدنيا عذاب الحريق حيث ارتفعت عليهم نار الأخدود فاحترقوا بها، وكان هؤلاء قوماً من نجران، وقيل: من أهل الموصل، وكان ملكهم يسمى يوسف، ويقال له ذو نواس {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ} من المفتونين وغيرهم {لَهُمْ} بسبب الإيمان والعمل الصالح {جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ} يتلذذون ببردها ويزول عنهم برؤية ذلك مع رؤية الأشجار جميع الأحزان والمضار {ذَٰلِكَ} أي حيازتهم للجنات {ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ} وهو رضا الله تعالى {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ} أي أن أخذه بالعذاب لمن لا يؤمن به {لَشَدِيدٌإِنَّهُ هُوَ يُبْدِىءُ وَيُعِيدُ} أي أنه تعالى يخلق خلقه، ثم يفنيهم، ثم يعيدهم أحياء ليجازيهم في القيامة، فذلك الإمهال لهذا السبب لا لأجل الإهمال ومن كان قادراً على الإيجاد والإعادة كان بطشه في غاية الشدة، {وَهُوَ ٱلْغَفُورُ} لمن تاب من الكفر {ٱلْوَدُودُ} أي المحب لمن أطاع. {ذُو ٱلْعَرْشِ} أي خالقه ومالكه.

وقرىء «ذي العرش» على أنه صفة لربك. {ٱلْمَجِيدُ} قرأ حمزة، والكسائي بالجر على أنه صفة للعرش أو لربك، والباقون بالرفع على أنه خبر بعد خبر. قال العلماء: إن مجد الله عظمته بحسب الوجود الذاتي، وكمال القدرة، والعلم، والحكمة، ومجد العرش: علوه في الجهة، وعظمة مقداره، وحسن صورته، وتركيبه. {فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} يدخل أولياءه الجنة لا يمنعه منه مانع، ويدخل أعداءه النار لا ينصرهم منه ناصر، ويمهل العصاة على ما يشاء إلى أن يجازيهم، ويعاجل بعضهم بالعقوبة إذا شاء، ويعذب من شاء منهم في الدنيا وفي الآخرة يفعل من هذه الأشياء، ومن غيرها ما يريد على ما يراه لا يعترض عليه معترض، ولا يغلبه غالب. قال الرازي: «فعال» خبر مبتدأ محذوف وقال الطبري: رفع «فعال» وهو نكرة محضة على وجه الإتباع لإعراب «الغفور الودود».

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ} أي قد أتاك يا أشرف الرسل خبر الجموع فرعون وقومه، وثمود، وعرفت ما فعلوا من الكفر والضلال، وما فعل بهم من العذاب، والنكال، فأنذر قومك أن يصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم، «وفرعون»، «وثمود» بدل من «الجنود» فذكر الله تعالى من المتقدمين ثمود ومن المتأخرين فرعون لأن ثمود كانوا في بلاد العرب، وقصتهم عندهم مشهورة، وأمر فرعون كان مشهوراً عند أهل الكتاب وغيرهم فدل بهما على أمثالهما {بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ وَٱللَّهُ مِن

وَرَآئِهِمْ مُّحِيطٌ} أي ليست جناية قومك مجرد عدم الاتعاظ بما سمعوا من حديث أولئك، بل هم مع ذلك في تكذيب شديد للقرآن الناطق بذلك في أنه قرآن من عند الله تعالى مع ظهور حاله بالبينات الباهرة، والحال أن الله تعالى قادر على إهلاكهم ومعاجلتهم بالعذاب على تكذيبهم بالقرآن والنبوة وهم في قبضته تعالى كالمحاط إذا أحيط به من ورائه فسد عليه مسلكه فلا يجد مهرباً، {بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ} أي ليس الأمر كما قالوا، بل هذا القرآن الذي يقرؤه محمد كتاب شريف عالي الطبقة فيما بين الكتب الإلهية في النظم والمعنى مكتوب في لوح محفوظ من وصول الشياطين إليه، ومن التحريف.

وقرأ نافع «محفوظ» بالرفع على أنه نعت ل «قرآن»، والباقون بالجر على أنه نعت ل «لوح»، وقرىء «قرآن مجيد» بالإضافة أي قرآن رب مجيد، وقرأ يحيى بن يعمر، وابن السميقيع «في لوح» بضم اللام وهو الهواء الذي فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح بفتح اللام، وهو عن يمين العرش مكتوب في صدره لا إله إلا الله وحده دينه الإسلام، ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن بالله، وصدق بوعده، واتبع رسله أدخله جنته، وكونه محفوظاً إما محفوظ عن أن يمسه إلا المطهرون، أو عن اطلاع الخلق عليه سوى الملائكة المقربين، أو عن أن يجري عليه تغيير وتبديل، فلما حكم فيه بسعادة قوم وشقاوة قوم وبتأذي قوم من قوم امتنع تغيره وتبدله فوجب الرضا به.

سورة الطارق

مكية، سبع عشرة آية، اثنتان وسبعون كلمة، مائتان وواحد وسبعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ} أي الظاهر في الليل {وَمَآ أَدْرَاكَ مَا ٱلطَّارِقُ} أي وأي شيء أعلمك يا أشرف الرسل ما الطارق قال سفيان بن عيينة: كل شيء في القرآن ما أدراك فقد أخبر الله الرسول به، وكل شيء فيه وما يدريك لم يخبره به {ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ} خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف وقع جواباً عن استفهام أي هو النجم المضيء في الغاية كأنه يثقب الأفلاك بضوئه، وينفذ فيها قيل: هو النجم الذي يقال له كوكب الصبح، وهو النجم الذي يهتدى به في ظلمات البر والبحر، ويوقف به على أوقات الأمطار، أو هو جنس الشهب الذي يرجم بها، ووصف النجم بكونه طارقاً لأنه يبدو بالليل أو لأنه يطرق الجني أن يصكه، وقال محمد بن الحسين، والفراء: إنه زحل لأنه يثقب بنوره سمك سبع سموات، وقال ابن زيد: هو الثريا، وقال ابن عباس: هو الجدي، وقال علي: هو نجم في السماء السابعة لا يسكنها غيره من النجوم، فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها، ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة، وهو زحل، فهو طارق حين ينزل وحين يصعد، وقال آخرون: إنه الشهب التي يرجم بها الشياطين لقوله تعالى: {فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} (الصافات: 01) روي أن أبا طالب أتى النبي

صلى الله عليه وسلم بخبز ولبن، فبينما هو جالس يأكل إذ انحط نجم فامتلأت الأرض نوراً ففزع أبو طالب، وقال: أي شيء هذا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هذا نجم رمي به وهو آية من آيات الله» فعجب أبو طالب، فنزلت هذه السورة {إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ}، وهذا جواب للقسم، و «إن» نافية و «لما» بمعنى إلا، أي ما كل نفس إلا عليها رقيب، وهو الله تعالى وهذا بالتشديد على قراءة عاصم، وحمزة، وابن عامر، والنخعي أما على قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، ونافع، والكسائي، وهي بتخفيف الميم ف «إن» مخففة من الثقيلة واللام في «لما» مخلصة من «إن» النافية وما صلة أي إن الشأن كل نفس برة أو فاجرة لعليها من يحصي عليها ما تكسب من خير وشر وهم الملائكة. {فَلْيَنظُرِ ٱلإِنسَٰنُ} أبو طالب وغيره {مِمَّ خُلِقَ} أي من أي شيء خلق نفسه {خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ}، وهو استئناف وقع جواباً عن استفهام أي خلق الإنسان من ماء ذي سيلان بسرعة في رحم المرأة

{يَخْرُجُ مِن بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ} أي من صلب ماء الرجل، ومن عظام صدر المرأة، وقال الحسن: يخرج من صلب الرجل وترائبه، ومن صلب المرأة وترائبها، وحكى القرطبي أن ماء الرجل ينزل من الدماغ، ثم يتجمع في الأنثيين {إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ} أي إن الذي خلق الإنسان ابتداء قادر على رده حياً بعد موته. {يَوْمَ تُبْلَىٰ ٱلسَّرَآئِرُ} أي يظهر ما أخفي من الأعمال، وما أسر في القلوب من العقائد، والنيات، وهو يوم القيامة. قال ابن عمر رضي الله عنهما: يبدي الله يوم القيامة كل سر فيكون زيناً في الوجوه وشيناً في الوجوه هذا إن أريد برجعه نشر الإنسان يوم القيامة، ف «يوم» ظرف نرجعه فلا يوقف على قوله تعالى: {لَقَادِرٌ} وإن أريد برجعه رد الماء إلى الإحليل كما قاله مجاهد، أو إلى الصلب كما قاله عكرمة، والضحاك، أورد الإنسان ماء كما كان قبل كما قاله الضحاك أيضاً ف «يوم» منصوب بمضمر أي واذكر «يوم» فالوقف على «لقادر» كافٍ كالوقف على «السرائر» إلا إذا جرينا على قول الرازي: إن «يوم» منصوب بقوله: {فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ} فلا وقف على السرائر {فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ} أي فما للإنسان شيء من قوة يدفع به عن نفسه ما جاء من عذاب الله، ولا أحد من الأنصار ينصره في دفعه، {وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ} أي ذات المطر بعد المطر حيناً بعد حين، {وَٱلأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ} أي ذات النبات لأن الأرض تنصدع بالنبات كما قاله الليث. {إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ} أي إن ما أخبرتكم به من قدرتي على إحيائكم في اليوم الذي تبلى سرائركم فيه لقول حق، {وَمَا هوَ بِٱلْهَزْلِ} أي ليس ذلك الخبر بالباطل وهذا كما قاله القفال، لكن أكثر المفسرين قالوا: أي أن القرآن الذي أخبر بمبدأ حال الإنسان ومعاده لقول مبين، حق، وقاطع شر، وليس في شيء منه لعب، بل كله جد محض فمن حقه أن يهتدي به الغواة وتخضع له رقاب العتاة. {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً} أي إن أهل مكة يمكرون في إبطال أمر القرآن وإطفاء نوره، {وَأَكِيدُ كَيْداً} أي أقابلهم بكيد قوي لا يمكن رده حيث أمهلهم على كفرهم حتى آخذهم على غرة {فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ} أي لا تستعجل يا أشرف الخلق بالدعاء عليهم بإهلاكهم {أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً} أي أمهلهم على مهلة قريبة إلى يوم القيامة أو

أمهلهم إمهالاً قليلاً إلى يوم بدر ف «رويداً» إما مصدر مؤكد لمعنى العامل، أو نعت لمصدره المحذوف.

سورة الأعلى

مكية، تسع عشرة آية، واثنتان وسبعون كلمة، ومائتان وأربعة وثمانون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلأَعْلَىٰ} أي نزه اسمه تعالى عن الإلحاد فيه بالتأويلات الزائغة، وعن إطلاقه على غيره بوجه يشعر بتشاركهما فيه، فلا يجوز تفسير أسمائه تعالى بما لا يصح ثبوته في حقه تعالى نحو أن يفسر الأعلى بالعلو في المكان، والاستواء بالاستقرار، بل يفسر العلو بالقهر والاقتدار، والاستواء بالاستيلاء، ولا يجوز أن يذكر العبد ربه إلا بالأسماء التي ورد الإذن بها من الشرع قال الواحدي: {سَبِّحِ ٱسْمَ رَبّكَ} أي نزه الاسم من السوء ومعنى: {سَبِّحِ ٱسْمَ رَبّكَ} نزه الله تعالى بذكر اسمه الدال على تنزيهه تعالى وعلوه عما يقول المبطلون، ومعنى الأعلى أن جلال كبريائه أعلى من معارفنا وإدراكاتنا وأصناف آلائه ونعمائه أعلا من حمدنا وشكرنا، وأنواع حقوقه أعلى من طاعاتنا وأعمالنا.

وقرأ علي، وابن عمر «سبحان ربي الأعلى» {ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ} أي الذي خلق كل ذي روح فكمل خلقه باليدين، والرجلين، والعينين، والأذنين، وسائر الأعضاء، {وَٱلَّذِى قَدَّرَ} قرأه الجمهور مشدداً أي أوقع تقديره في كل شيء، فقدر خلقه حسناً أو دميماً، طويلاً أو قصيراً، وقدر أرزاقهم وآجالهم، وقرأه الكسائي على التخفيف أي تصرف في خلقه كيف أراد {فَهَدَىٰ} أي لمنافع الخلق ومصالحه فألهم كيف يأتي الذكر الأنثى، ويروى أن الأفعى إذا بلغت ألف سنة عميت، وقد ألهمها الله تعالى أن تحك عينها بورق الرازيانج فيرد الله إليها بصرها، ويروى أن التمساح لا يكون له دبر وإنما يخرج فضلات ما يأكله من فمه حيث قيض الله له طائراً قدر غذاءه من ذلك فإذا رآه التمساح يفتح فمه فيدخله الطائر فيأكل ما فيه، وقد خلق الله تعالى له من فوق منقاره ومن تحته قرنين لئلا يطبق عليه التمساح فمه {وَٱلَّذِى أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ} أي أنبت النبات والزروع، وقال ابن عباس: أي الكلأ الأخضر {فَجَعَلَهُ} بعد خضرته {غُثَآءً أَحْوَىٰ} أي درينا أسود بأن ألصق السيل أجزاء كدورة به فيسود

{سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَىٰ} أي نجعلك قارئاً للقرآن فتقرؤه فلا تنسى أي إنّا نشرح صدرك ونقوي خاطرك حتى تحفظ القرآن حفظاً لا تنساه. قال مجاهد، ومقاتل، والكلبي: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه القرآن أكثر تحريك لسانه مخافة أن ينسى، وكان جبريل لا يفرغ من آخر الوحي. فقال تعالى: {سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَىٰ} أي سنعلمك هذا القرآن حتى تحفظه {إِلاَّ مَا شَآءَ ٱللَّهُ} أن ينسى النبي شيئاً من القرآن، وهذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير النبي ناسياً لذلك لقدر عليه، وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء أن الله تعالى يعرفه قدرة الله حتى يعلم أن

عدم النسيان من فضل الله لا من قوته صلى الله عليه وسلم، وقال الزجاج: أي إلا ما شاء الله أن ينسى فإنه ينسى ثم يتذكر بعد ذلك فلا ينسى، نسياناً كلياً دائماً، وقال مقاتل: إلا ما شاء الله أن ينسيه فيكون المعنى إلا ما شاء الله أن تنساه على الأوقات كلها، فيأمرك أن لا تقرأه ولا تصلي به فيصير ذلك سبباً لنسيانه وزواله من الصدور. {إِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ} أي أنه تعالى عالم بجهرك في القراءة مع قراءة جبريل عليه السلام، وعالم بالسر الذي في قلبك وهو أنك تخاف النسيان فلا تخف فأنا أكفيك ما تخافه، {وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ} أي نوفقك للطريقة اليسرى في كل أبواب من أبواب الدين علماً وتعليماً واهتداء وهداية، {فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ} أي عظ يا أشرف الرسل الناس بالقرآن واهدهم إلى ما فيه من الأحكام الشرعية كما كنت تفعله إن نفعت الموعظة، فالتذكير العام واجب في أول الأمر، فأما التكرير فإنما يجب عند رجاء حصول المقصود، فلهذا المعنى قيد التذكير بهذا الشرط وقيل «إن» بمعنى إذ كقوله تعالى: {وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم}، (آل عمران: 931) {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ} وهو من قطع بصحة المعاد، ومن جوز وجوده بخلاف من أصر على إنكاره وقطع بأنه لا يكون. قيل: نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان، وقيل: نزلت في ابن أم مكتوم، {وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلأَشْقَى} أي ويتباعد عن الموعظة بالقرآن الأشقى، وهو المعاند الذي لا يلتفت إلى الدعوة ولا يصغي إليها فالفرق ثلاثة: العارف بصحة المعاد، والمتوقف فيه، والمعاند. فالعارف هو السعيد، والمتوقف له بعض الشقاء، والمعاند هو الأشقى، قيل: نزلت هذه الآية في الوليد، وعتبة، وأبي { ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ} أي الذي يدخل الطبقة السفلى من طبقات النار، {ثُمَّ} بعد دخوله النار {لاَ يَمُوتُ فِيهَا} حتى يستريح {وَلاَ يَحْيَا} حياة تنفعه {قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ} أي تطهر من دنس الشرك، كما قال ابن عباس أي من قال: لا إله إلا الله، وقال الزجاج: أي من تكثر من التقوى، {وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ} بقلبه ولسانه {فَصَلَّىٰ} فمراتب أعمال المكلف ثلاثة: إزالة العقائد الفاسدة عن القلب، واستحضار معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأسمائه، والاشتغال بخدمته، وقال بعضهم أي قد فاز من تصدق بصدقة الفطر قبل خروجه إلى المصلى، وكبر الله تعالى، ثم صلى صلاة العيد مع الإيمان فأثنى الله على من فعل ذلك، وإن لم يكن في مكة عيد ولا زكاة فطر لأن ذلك في علم الله سيكون، {بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا} أي أنتم يا كفار مكة لا تفعلون ذلك، بل أنتم ترضون اللذات الفانية وتطمئنون بها وتعرضون عن الآخرة بالكلية، أو أنتم أيها المسلمون لا تكثرون من التقوى، بل تستكثرون من الدنيا الدنية على الاستكثار من الثواب، وقرأ أبو عمرو «يؤثرون» بالياء أي الأشقون، {وَٱلأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ} أي والحال أن الآخرة خير في نفسها وأدوم لأنها مشتملة على السعادة الجسمانية والروحانية ولذاتها خالصة عن الغائلة {إِنَّ هَـٰذَا} أي قوله تعالى: {ٱلنَّصِيرُ قَدْ أَفْلَحَ}، {لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلأُولَىٰ} أي لثابت معناه فيها {صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ}.

سورة الغاشية

مكية، ست وعشرون آية، واثنتان وتسعون كلمة، وثلاثمائة وأحد وثمانون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ} أي خبر القيامة التي تغشى الناس جميعاً من الأولين والآخرين بشدائدها، و «هل» استفهام أريد به التعجب مما في ذلك الحديث، والتشويق إلى استماعه {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ} أي يوم إذ غشيت {خَٰشِعَةٌ} أي ذليلة بالعذاب {عَامِلَةٌ} أعمالاً شاقة {نَّاصِبَةٌ} أي ذات تعب فيها، وهي جر السلاسل، والأغلال، وخوضهم في النار خوض الإبل في الوحل، وصعودهم في تلال النار وهبوطهم في وهادها وهم الرهبان وأصحاب الصوامع كما قاله ابن عباس، أو هم الخوارج كما قاله علي {تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً} أي تدخل ناراً متناهية في الحر.

وقرأ أبو عمرو، وعاصم بضم التاء الفوقية وقوله تعالى: {وُجُوهِ} مبتدأ و {خَٰشِعَةٌ} وما بعده خبره، وقيل خبره «تصلى» وما قبله صفات ل «وجوه» ولا يوقف قبل الخبر، وقرىء «عاملة» ناصبة على الشتم {تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ} أي متناهية في الحر {لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ} وهو ما يبس من الشبرق وهو نبت يكون في طريق مكة إذا كان رطباً تأكل منه الإبل، وإذا يبس صار كأظفار الهرة، وهو سم قاتل، وهذا طعام لبعض أهل النار، والزقوم، والغسلين لآخرين {لاَّ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِى مِن جُوعٍ} أي غير مسمن وغير مشبع لأنه ليس من جنس ضريع الدنيا. روي أن كفار قريش قالت: إن الضريع لتسمن عليه إبلنا فنزلت هذه الآية، {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ} أي ذات حسن وجمال {لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ} أي لثواب عملها الذي عملته في الدنيا راضية حين رأت ذلك الثواب حتى لا تريد أكثر منه {فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} مكاناً ومنقبة {لاَّ تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً}.

قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وحفص بفتح التاء ونصب «لاغية» أي لا تسمع أنت يا أكرم الرسل، أو يا مخاطب، أو لا تسمع الوجوه في الجنة كلمة ذات لغو، فإنما يتكلمون بالحكمة، وحمد الله على النعم، وقرأ نافع بضم التاء الفوقية ورفع «لاغية»، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بضم الياء التحتية ورفع «لاغية»، وقرأ المفضل، والجحدري بفتح الياء التحتية ونصب «لاغية» أي لا يسمع فيها أحد يميناً لا برة ولا فاجرة

{فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ} أي في الجنة عين شراب جارية على وجه الأرض في غير أخدود، وتجري لهم كما أرادوا. {فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ} في الهواء لأجل أن يرى المؤمن إذا جلس عليها جميع ما أعطاه ربه في الجنة من النعيم، والملك. قال ابن عباس: هي سرر ألواحها من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت مرتفعة في السماء {وَأَكْوَابٌ} أي كيزان {مَّوْضُوعَةٌ} بين أيديهم لاستحسانهم إياها بسبب كونها من ذهب، أو فضة، أو من جوهر وتلذذهم بالشراب منها {وَنَمَارِقُ} أي وسائد {مَصْفُوفَةٌ} بعضها إلى جانب بعض أينما أراد أن يجلس جلس على واحدة واستند إلى أخرى {وَزَرَابِيُّ} أي بسط فاخرة {مَبْثُوثَةٌ} أي منشورة مفرقة في المجالس، فلما أخبرهم

النبي صلى الله عليه وسلم بذلك قال كفار مكة: ائتنا بآية بأن الله أرسلك إلينا رسولاً فقال الله تعالى: {أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} أي أينكر كفار مكة البعث، ويستبعدون وقوعه من قدرة الله فلا ينظرون إلى الإبل نظر اعتبار كيف خلقت بشدة قوتها، وعجيب هيئتها، وصبرها على الجوع، والعطش، واحتمال المداومة على السير، {وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ} فوق الأرض بلا عماد ولا إمساك {وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ} نصباً رضياً على الأرض لا يتزلزل {وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} أي بسطت على الماء.

وقرىء «سطحت» مشدداً، وقرأ علي رضي الله عنه وكرم وجهه «خلقت» و «رفعت» و «نصبت» و «سطحت» على البناء للفاعل وبتاء المتكلم، {فَذَكِّرْ} أي فاقتصر على التذكير والحمل على النظر في هذه الأدلة {إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ} فلا بأس عليك في أن لا ينظروا بالاعتبار ولا يتذكروا بالافتكار إنما عليك البلاغ {لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ} أي لست يا أشرف الخلق بمتسلط عليهم بأن تجبرهم على الإيمان،

وقرأ هشام بالسين، وحمزة بإشمام الصاد كالزاي، والباقون بالصاد الخالصة، وقرىء بفتح الطاء {إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ}، وفي هذا الاستثناء قولان:

أحدهما: إنه استثناء حقيقي وفي هذا احتمالان: إما أن يكون مستثنى من المفعول أي فذكر عبادي إلا من أعرض عن الإيمان وكفر بالقرآن فاستحق العذاب الأكبر، وإما أن يكون مستثنى من الضمير في «عليهم» أي لست عليهم بمسيطر إلا على من انقطع طمعك من إيمانه وتولى عنك وكفر بالله، فإن لله القهر، وسيأمرك بقتالهم، فإن جهاد الكفار وقتلهم تسليط، فكأنه تعالى أوعدهم بالجهاد في الدنيا وبعذاب النار في الآخرة.

ثانيهما: إن هذا الاستثناء منقطع عما قبله والتقدير لست بمستولٍ عليهم، لكن من تولى منهم فإن الله تعالى يعذبه العذاب الأكبر الذي هو عذاب جهنم، وعلامة كون الاستثناء منقطعاً حسن دخول «أن» في المستثنى به وإذا كان الاستثناء متصلاً لم يحسن ذلك ألا ترى أنك تقول: عندي مائتان إلا درهماً، فلا يحسن عليه دخول أن، وههنا يحسن دخول أن فإنك تقول إلا أن من تولى وكفر،

{فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ} وسمي العذاب بالأكبر لأنه قد بلغ حد عذاب الكفر، فإن ما عداه من عذاب الفسق دونه، وقرىء «ألا من تولى» بفتح الهمزة على التنبيه، وهذا مما يقوي القول بأن الاستثناء منقطع، وفي قراءة ابن مسعود «فإنه يعذبه الله». {إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ} أي رجوعهم بالموت والبعث لا إلى أحد سوانا قرأ أبو جعفر المدني بتشديد الياء، {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} في المحشر على النقير والقمطير لا على غيرنا، والحساب واجب عليه تعالى بحكم الوعد الذي يمتنع الخلف فيه، وفي الحكمة فإنه تعالى لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم لكان ذلك شبيهاً بكونه تعالى راضياً بذلك الظلم تعالى الله تعالى عنه، وذكر تعالى هذه الآية ليزيل بها عن قلب النبي صلى الله عليه وسلم حزنه على كفرهم.

سورة الفجر

مكية، تسع وعشرون آية، ومائة وتسع وثلاثون كلمة، وخمسمائة وسبعة وتسعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَ ٱلْفَجْرِ} وهو صبح النهار أقسم الله به لحصول انتشار الناس وسائر الحيوانات به في طلب الرزق، فهو مشاكل لنشور الموتى من قبورهم وفيه عبرة لمن تأمل، {وَلَيَالٍ عَشْرٍ} من أول ذي الحجة وفي الخبر: «ما من أيام العمل الصالح فيها أفضل من أيام العشر»، وذلك لأنها أيام الاشتغال بالحج في الجملة، وقرىء و «ليال عشر» بالإضافة على أن المراد بالعشر الأيام، {وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ} فالشفع يوم النحر، والوتر يوم عرفة، وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم فسرهما بيوم النحر، ويوم عرفة، وقال أبو بكر الوراق «الشفع» صفات الخلق كالعلم والجهل، والقدرة، والعجز، والبصر، والعمى، والحياة، والموت، والوتر صفات الله تعالى وهي وجود بلا عدم، حياة بلا موت، علم بلا جهل، قدرة بلا عجز، عز بلا ذل، وقال مقاتل: «الشفع»: هو الليالي والأيام، و «الوتر» هو اليوم الذي لا ليل بعده، وهو يوم القيامة، وقرأ حمزة والكسائي «والوتر» بكسر الواو، والباقون بفتحها، والكسر قراءة الحسن، والأعمش، وابن عباس، وهي لغة تميم، والفتح قراءة أهل المدينة، وهي لغة حجازية، {وَ ٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} أي يذهب وهي ليلة المزدلفة، فإنه يذهب ويجيء فيه الناس، وقال مقاتل: أي إذا يسار في ذلك الليل وهي ليلة المزدلفة، وقرأ نافع: وأبو عمرو بحذف ياء يسر وقفاً وبإثباتها وصلاً، وأثبتها ابن كثير في الحالين، وحذفها الباقون في الحالين لسقوطها في خط المصحف الكريم، وقرىء «يسر» بالتنوين كما قرىء به «والفجر» «والوتر» وهو التنوين الذي يقع بدلاً من حرف الإطلاق

{هَلْ فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ} أي هل في هذه الأشياء المذكورة مقسم به لذي عقل، والمراد من هذا الاستفهام التأكيد والتحقيق والمعنى: أن من كان ذا لب علم أن ما أقسم الله تعالى بهذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية، فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه، وجواب القسم محذوف لدلالة المعنى عليه أي لنجازين كل أحد بما عمل بدليل تعديد ما فعل بالقرون الخالية، فالوقف هنا تام كما قاله أبو حاتم وغيره، وقال ابن الأنباري: جواب القسم قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِ ٱلْمِرْصَادِ} أي وإنما أجازوا الوقف هنا لطول الكلام، لكن ينبغي حينئذ أن يقال وقف صالح أو نحوه لا تام للفصل بين القسم وجوابه {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ} أي ألم تعلم يا أشرف الخلق علماً يقيناً كيف أهلك الله قوم هود عند التكذيب {إِرَمَ} عطف بيان ل «عاد» للإعلام بأنهم عاد الأولى القديمة إن جعلنا إرم اسماً للقبيلة بتقدير مضاف أي سبط إرم فإرم جد عاد فإن عاداً هو ابن عوص بن إرم ابن سام بن نوح عليه السلام وإن جعلناه اسم البلدة كان التقدير بعاد أهل إرم ويدل عليه قراءة ابن الزبير «بعاد إرم» على الإضافة وقرأ الحسن «بعاد إرم» مفتوحتين {ذَاتِ ٱلْعِمَادِ} أي ذات الأساطين من ذهب وفضة أي ذات القدود الطوال {ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا}

أي مثل تلك المدينة في الحسن، والجمال، أو مثل عاد في عظم الجثة وشدة القوة {فِى ٱلْبِلَٰدِ} أي في جميع بلاد الدنيا. وقر ابن الزبير و«لم يخلق مثلها» بالبناء للفاعل أي لم يخلق الله مثل إرم مدينة شداد.

روي أنه كان لعاد ابنان شداد، وشديد فملكا بعده وقهرا البلاد والعباد، ثم مات شديد وخلص الملك لشداد فملك الدنيا ودانت له الدنيا، وكان يحب قراءة الكتب القديمة فسمع بذكر الجنة وصفتها ودعته نفسه إلى بناء مثلها عتواً على الله تعالى فبنى مدينة إرم في بعض صحاري عدن في ثلاثمائة سنة، وهي مدينة عظيمة قصورها من الذهب، والفضة، وأساطينها من الزبرجد، والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة، فروى وهب بن منبه عن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له شردت فبينما هو يسير في صحارى عدن إذ وقع على مدينة في تلك الفلوات عليها حصن وحول الحصن قصور كثيرة فلما دنا منها ظن أن فيها أحداً يسأله عن إبله فلم ير خارجاً ولا داخلاً فنزل عن دابته وعقلها وسل سيفه ودخل من باب المدينة، فإذا هو ببابين عظيمين وهما مرصعان بالياقوت الأحمر فلما رأى ذلك دهش ففتح الباب ودخل، فإذا هو بمدينة لم ير أحد مثلها وإذا فيها قصور في كل قصر منها غرف وفوق الغرف غرف مبنية بالذهب والفضة وأحجار اللؤلؤ والياقوت، وإذا أبواب تلك القصور مثل مصاريع باب المدينة يقابل بعضها بعضاً وهي مفروشة كلها باللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران فلما عاين ذلك، ولم ير أحداً هاله ذلك، ثم نظر إلى الأزقة فإذا في تلك الأزقة أشجار مثمرة وتحت تلك الأشجار أنهار يجري ماؤها في قنوات من فضة، فقال الرجل في نفسه: هذه الجنة وحمل معه من لؤلؤها ومن بنادق مسكها وزعفرانها، ورجع إلى اليمن وأظهر ما كان معه وحدث بما رأى، فبلغ ذلك معاوية فأرسل إليه فقدم عليه فسأله عن ذلك فقص عليه ما رأى فأرسل معاوية إلى كعب الأحبار فلما أتاه وقال له: يا أبا إسحق هل في الدنيا مدينة من ذهب وفضة قال: نعم هي إرم ذات العماد بناها شداد ابن عاد، قال: فحدثني حديثها، فقال: لما أراد شداد بن عاد عملها أمر عليها مائة قهرمان مع كل قهرمان ألف من الأعوان، وكتب إلى ملوك الأرض أن يمدوهم بما في بلادهم من الجواهر فخرجت القهارمة يسيرون في الأرض ليجدوا أرضاً موافقة فوقفوا على صخرة نقية من التلال وإذا فيها عيون ماء ومروج فقالوا: هذه الأرض التي أمر الملك أن يبني فيها، فوضعوا أساسها من الجزع اليماني وأقاموا في بنائها ثلاثمائة سنة، وكان عمر شداد تسعمائة سنة فلما أتوه وقد فرغوا منها قال: انطلقوا فاجعلوا حصناً أي سوار واجعلوا حوله ألف قصر وعند كل قصر ألف علم ليكون في كل قصر وزير من وزرائي، ففعلوا وأمر الملك وزراءه وهم ألف وزير أن يتهيأوا للنقلة إلى إرم ذات العماد، وكان الملك وأهله في جهازهم عشر سنين، ثم ساروا إليها فلما كانوا من المدينة على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليه وعلى من كان معه صيحة من السماء فأهلكتهم جميعاً، ولم يبق منهم أحد، ثم قال كعب: وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب إبل له، ثم التفت فأبصر عبد الله بن قلابة، فقال: هذا والله هو ذلك الرجل، {وَثَمُودَ} أي وكيف

أهلك الله قوم صالح، وثمود قبيلة مشهورة سميت باسم جدهم ثمود أخي جديس، وهما ابنا عامر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكانوا يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك يعبدون الأصنام كعاد {ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ} أي الذين نقبوا صخر الجبال فاتخذوا فيها بيوتاً بوادي القرى، وهو موضع بقرب المدينة قيل: هم أول من نحت الجبال والصخور والرخام وبنوا ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة، {وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ} سمي بذلك لأنه كان يعذب الناس ويشدهم بأربعة أوتاد مطروحين على الأرض إلى أن يموتوا، وقيل: لكثرة جنوده وخيامهم التي ينصبونها في منازلهم، وقال ابن عباس أي ذي الجنود والعساكر التي تشد ملكه {ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَادِ} والموصول منصوب على الذم أو مرفوع كذلك أي الذين تجبر كل واحد من عاد، وثمود، وفرعون في بلادهم على أنبياء الله والمؤمنين {فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ} بالقتل وعبادة الأوثان وسائر المعاصي {فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ} أي فأنزل الله إنزالاً شديداً عقب طغيانهم وفسادهم على كل طائفة من أولئك الطوائف جزء عذاب فأهلك عاداً بالريح، وثمود بالصيحة، وفرعون بالغرق، وذكر السوط إشارة إلى أن ما أنزله الله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعد لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به {إِنَّ رَبَّكَ} يا أشرف الخلق {لَبِٱلْمِرْصَادِ} أي لفي الطريق عليه تعالى ممر سائر الخلق كما قاله ابن عباس أو إن إليه المصير كما قاله الفراء وهذا عام للمؤمنين والكافرين {فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَٰهُ رَبُّهُ} أي إذا امتحنه ربه بالنعمة {فَأَكْرَمَهُ} بالمال والجاه والولد {وَنَعَّمَهُ} أي وسع عليه معيشته {فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ} أي فضلني بما أعطاني

{وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَٰهُ} أي وأما هو إذا اختبره ربه بالفقر {فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ} أي فضيق عليه معيشته {فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ} قوله تعالى: فأما الإنسان متصل من حيث المعنى بقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ} فكأنه قيل: إن الله لا يريد من الإنسان إلا الطاعة التي تنفعه في الآخرة، فإنه يراقب أحواله ويجازيه بأعماله خيراً وشراً في الآخرة، فأما الإنسان فلا يريد إلا الدنيا ولذاتها فإن وجد الراحة في الدنيا يقول: ربي أكرمني، وإن لم يجدها يقول: ربي أهانني وأما هنا لمجرد التأكيد لا لتفصيل المجمل مع التأكيد، و «الإنسان» مبتدأ خبره «فيقول» والظرف وهو «إذا» منصوب بالخبر لأن الظرف في نية التأخير ودخول الفاء في الخبر لما في أما من معنى الشرط، وما زائدة، والفاء في قوله تعالى: {فَأَكْرَمَهُ} تفسيرية، والوقف في «أكرمن» مفهوم وفي «أهانن» حسن. وقال أبو عمرو والوقف فيهما كافٍ، وقيل: تام، وقال الكلبي: إن المراد من الإنسان أَبي بن خلف، وقال مقاتل، وابن جرير: نزلت هذه الآية في أمية بن خلف وروي عن ابن عباس أن المراد بالإنسان عتبة بن ربيعة، وأبو حذيفة بن المغيرة، وقيل: إنه كافر جاحد ليوم الجزاء.

وقرأ نافع «أكرمن» و «أهانن» بإثبات الياء فيهما وصلاً وحذفها وقفاً، وقرأهما البزي عن ابن كثير بإثباتها في الحالين، وعن أبي عمرو: إن الحذف في الوصل أعدل، والباقون بالحذف في الحالين، وقرأ ابن عامر

«فقدر عليه رزقه» بتشديد الدال أي جعله على مقدار البلغة {كَلاَّ} رد على من ظن ذلك المذكور، والمعنى: ليس إكرامي بالمال والغنى، بالفقر، وقلة المال، ولكن إكرامي بالمعرفة والتوفيق وإهانتي بالنكرة والخذلان، والوقف هنا حسن وهو أحسن من الوقف على «أهانن»، {بَل لاَّ تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ} أي قل يا محمد لهم: بل لكم أحوال أشد شراً من ذلك القول، وهو أن الله تعالى يكرمكم بكثرة المال فلا تؤدون ما يلزمكم فيه، فإنكم لا تحسنون إلى اليتيم ولا تعرفون حقه، {وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ} بحذف إحدى التاءين، وهو قراءة الكوفيين أي لا يحض بعضكم بعضاً على إطعام المسكين، وقرىء «ولا تحضوا» أي لا تأمرون بإطعامه، وفي قراءة ابن مسعود «ولا تحاضون» بضم التاء أي لا يحض كل واحد منكم صاحبه، وهذا إشارة إلى ترك بر اليتيم. {وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً} أي وتأكلون تراث اليتامى أكلاً جامعاً فإنكم تجمعون نصيبهم إلى نصيبكم، وهذا إشارة إلى دفع اليتيم عن حقه الثابت له في الميراث، وأكل ماله. {وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبّاً جَمّاً} أي كثيراً وهذا إشارة إلى أخذ مال اليتيم منه، وقرأ أبو عمرو يكرمون وما بعده بالياء التحتية {كَلاَّ} أي لا ينبغي أن يكون الأمر هكذا في الحرص على الدنيا حتى {إِذَا دُكَّتِ ٱلأَرْضُ دَكّاً دَكّاً} أي إذا انكسر كل شيء على وجه الأرض من جبل، وشجر، وبناء حين زلزلت فلم يبق على ظهرها شيء حتى صارت ملساء،

{وَجَآءَ رَبُّكَ} أي جاء ظهوره وقهره أي حصل تجليه تعالى على الخلائق أي زالت الشبهة، وارتفعت الشكوك وظهر سلطان قهره، {وَ ٱلْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً} أي وتنزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفاً بعد صف بحسب مراتبهم محدقين بالجن والإنس فيكونون سبعة صفوف، {وَجِيۤءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ} مزمومة بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها إلى المحشر ويكشف عنها حتى رآها الخلق، وعلم الكافر أن مصيره إليها {يَوْمَئِذٍ} بدل من «إذا دكت». {يَتَذَكَّرُ ٱلإِنسَانُ} ما فرط فيه ويتعظ الكافر، فيقول: يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا، وهذا جواب «إذا»، {وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ} أي ومن أين له العظة وقد فاته أوانها {يَقُولُ} أي الإنسان الكافر {يٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى} فيا للتنبيه أي ليتني قدمت عملاً يوجب نجاتي من النار حتى أكون من الأحياء، {فَيَوْمَئِذٍ} أي يوم إذ يقول الإنسان ذلك {لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ} أي لا يعذب أحد من الزبانية مثل تعذيب الكافر، {وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ} أي ولا يوثق أحد من الزبانية بالسلاسل والأغلال مثل إيثاق الكافر لتناهيه في كفره وفساده.

وقرأ الكسائي «لا يعذب ولا يوثق» بفتح الذال والثاء أي لا يعذب أحد مثل عذاب الكافر ولا يوثق أحد بالسلاسل والأغلال مثل وثاق الكافر. {يٰأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ} بذكر الله وطاعته، وقرأ أبي بن كعب «يأيتها النفس الآمنة المطمئنة» وهي التي لا يستفزها خوف ولا حزن وهذه الخاصة قد تحصل عند الموت عند سماع البشارة من الملائكة وتحصل عند البعث وعند دخول الجنة بلا شك أي يقول الله للمؤمن إكراماً له أو على لسان ملك يأيتها النفس المطمئنة { ٱرْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ} أي إلى ثواب ربك {رَاضِيَةً} بما أوتيت من النعيم المقيم {مَّرْضِيَّةً} عند الله عز وجل في

الأعمال التي عملتها في الدنيا، {فَٱدْخُلِى فِى عِبَادِى} أي في زمرة عبادي الصالحين المختصين بي، {وَٱدْخُلِى جَنَّتِى} معهم، وقرىء «فادخلي في عبدي» وقرىء في «جسد عبدي» وهذا يؤيد كون الخطاب عند البعث. قيل: نزلت هذه الآية في حمزة بن عبد المطلب، وروى الضحاك أنها نزلت في عثمان حين وقف بئر رومة، وقيل نزلت في خبيب بن عبد الذي صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة، فقال: اللهم إن كان لي عندك خير فحول وجهي نحو قبلتك فحول الله وجهه نحوها فلم يستطع أحد أن يحوله والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

سورة البلد

مكية، هي عشرون آية، واثنتان وثمانون كلمة، وثلاثمائة وعشرون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{لاَ} قال الأخفش هي مزيدة {أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ} وهو مكة {وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ} أي أنت نازل في هذا البلد، أو أنت في حل مما صنعت في هذا البلد، فإن الله فتح مكة عليه صلى الله عليه وسلم وما فتحت على أحد قبله، ولا أحلت له فأحل صلى الله عليه وسلم فيها ما شاء وحرم ما شاء. قتل عبد الله بن خطل، وهو متعلق بأستار الكعبة، ومقيس بن صبابة وغيرهما وحرم دار أبي سفيان، ثم قال: إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام إلى أن تقوم الساعة لم تحل لأحد قبلي، ولن تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار فلا يعضد شجرها، ولا يختلي خلاها، ولا ينفر صيدها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد، فقال العباس: يا رسول الله إلا الأذخر فإنه لقيوننا وقبورنا وبيوتنا، فقال صلى الله عليه وسلم إلا الأذخر {وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ} فالوالد آدم وما ولد بنوه، وقيل كل والد وولده {لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ} أي في اعتدال القامة، أو في تعب فإنه لا يزال يقاسي فنون الشدائد من وقت نفخ الروح إلى حين نزعها، وما وراءه، وليس في هذه الدنيا لذة ألبتة فالذي يظن الإنسان أنه لذة فهو خلاص عن الألم، وما يتخيل من اللذة عند الأكل فهو خلاص عن ألم الجوع، وما يتخيل من اللذة عند اللبس، فهو خلاص عن ألم الحر والبرد، فليس للإنسان إلا ألم، أو خلاص عن ألم، فإذاً لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى لتكون تلك الدار دار اللذات والسعادات والكرامات {أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} أي أيحسب الإنسان بقوته أنه لن يقدر على بعثه ومجازاته، أو على تغيير أحواله أحد وهو الله تعالى {يَقُولُ} أي الإنسان كلدة بن أسيد أو الوليد بن المغيرة {أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً} أي أنفقت مالاً كثيراً في عداوة محمد عليه الصلاة والسلام، فلم ينفعني ذلك شيئاً.

وقرأ أبو جعفر بتشديد الباء مفتوحة، وقرأ مجاهد وحميد بضم الباء واللام مخففاً، والباقون بضم اللام وكسرها وفتح الباء مخففاً،

{أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ} أي أيحسب هذا الإنسان أنه لم يره أحد، وهو الله تعالى حين كان ينفق وأنه تعالى لا يسأله عن إنفاقه ولا يجازيه عليه.

{أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ} ينظر بهما {وَلِسَاناً} ينطق به {وَشَفَتَيْنِ} يستر بهما فاه {وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَينِ} أي بيَّنا له الطريقين: طريق الخير، والشر، أو دللناه على الثديين لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه، فإن الله تعالى هدى الطفل الصغير إلى الثديين حتى ارتضعهما {فَلاَ ٱقتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ} أي فهلا تلبس من أنفق ماله بمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر، أو فلم يشكر تلك النعم الجليلة بتحصيل الأعمال الصالحة، {وَمَآ أَدْرَاكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ} أي أي شيء أعلمك ما الدخول في صعاب الطريق {فَكُّ رَقَبَةٍ} أي هي إعتاق رقبة، أو إعطاء مكاتب ما يصرفه إلى جهة فكاك نفسه، أو تخليص شخص من قود، أو غرم، أو فك المرء رقبة نفسه باجتناب المعاصي وفعل الطاعات التي يصير بها إلى الجنة ويتخلص بها من النار، فهذه هي الحرية الكبرى {أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ} أي مجاعة {يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ} أي ذا قرابة {أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ} أي ذا افتقار كأنه لصق بالتراب من ضره، فليس فوقه ما يستره، ولا تحته ما يفرشه.

قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة بصيغة المصدر في «فك» و «إطعام» وهو خبر مبتدأ محذوف، والباقون بصيغة الفعل فيهما على الإبدال من «اقتحم» المنفي بلا كأنه قيل: فلافك رقبة ولا أطعم فلا مكررة في المعنى، فلا يقال: إن لا لا تدخل على الماضي إلا مكررة، {ثُمَّ كَانَ} أي مكتسب الطاعات داخل الأمور الصعاب {مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ} أي أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على أداء الطاعات وعلى المرازي، {وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ} أي بالرحمة على عباده فقوله: {وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ} إشارة إلى التعظيم لأمر الله وقوله: {وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ} إشارة إلى الشفقة على خلق الله ومدار أمر الطاعات ليس إلا على هذين الأصلين فإن الأصل في التصوف أمران صدق مع الحق، وخلق مع الخلق {أُوْلَٰئِكَ} أي الموصوفون بتلك الصفة {أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ} أي الجانب الذي فيه البركة والنجاة من كل هلكة، {وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأايَٰتِنَا} أي بما نصبناه دليلاً على الحق من كتاب وحجة {هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْأَمَةِ} أي الخصلة المكسبة للحرمان {عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةُ} أي مطبقة فلا يخرجون منها أبداً. قرأ أبو عمرو، وحفص، وحمزة بالهمزة، والباقون بواو ساكنة.

سورة الشمس

مكية، هي خمس عشرة آية، وأربع وخمسون كلمة، ومائتان وسبعة وأربعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَٱلشَّمْسِ وَضُحَٰهَا} أي ضوئها إذا ارتفعت وقام سلطانها، {وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَٰهَا} أي تبع الشمس بأن طلع بعد غروبها وذلك في النصف الأول من الشهر، {وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّٰهَا} أي إذا أظهر الشمس فإنها تنكشف عند انبساط النهار فكأنه أظهرها مع أنها هي التي تبسطه، {وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَٰهَا} أي يغطي ضوء الشمس بظلمته {وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَٰهَا} أي والذي خلقها وهو الله تعالى أقسم بنفسه، {وَٱلاٌّرْضِ وَمَا طَحَٰهَا} أي بسطها على الماء، {وَنَفْسٍ

وَمَا سَوَّاهَا} أي وجسد كثير والذي أنشأها متناسبة الأعضاء، أو وقوة مدبرة، والذي أعطاها قوى كثيرة كالقوة السامعة، والباصرة، والمفكرة، والمذكرة {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} أي أفهمها حالاهما من الحسن والقبيح، وقيل: ألهم الله الكافر فجوره، وألهم المؤمن المتقي تقواه. {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّهَا} أي قد أدرك من طهر نفسه من الذنوب مطلوبه بفعل الطاعة ومجانبة المعصية، {وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّهَا} أي وقد خسر من أخفى نفسه في المعاصي حتى انغمس فيها {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ} أي فعلت ثمود تكذيب الرسول بسبب مجاوزتها الحد في العصيان، أو كذبت ثمود بعذابها أي لم يصدقوا رسولهم فيما أنذرهم به العذاب فالطغوى على هذا اسم للعذاب الذي أهلكوا به {إِذِ ٱنبَعَثَ أَشْقَٰهَا} أي حين قام أشقى ثمود، وهو قدار بن سالف ومصدع بن دهو لعقر الناقة برضاهم، {فَقَالَ لَهُمْ} أي لثمود {رَسُولُ ٱللَّهِ} صالح لما عرف منهم أنهم قد عزموا على عقر الناقة {نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا} أي ذروا عقر الناقة التي هي آية الله الدالة على توحيده وعلى نبوتي واحذروا شربها فلا تمنعوها عنه في نوبتها، {فَكَذَّبُوهُ} أي رسول الله صالحاً في وعيده بالعذاب، {فَعَقَرُوهَا} قال الفراء: عقر الناقة اثنان، وقال قتادة: ذكر لنا إن قدار أبى أن يعقرها حتى بايعه صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم، {فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ} أي أهلكهم ربهم {بِذَنبِهِمْ} أي بسبب قتلهم الناقة وتكذيبهم صالحاً عليه السلام، {فَسَوَّاهَا} أي سوى هذه الطائفة في إنزال العذاب بهم صغيرهم، وكبيرهم، ووضيعهم، وشريفهم، وذكرهم، وأنثاهم.

وقرأ ابن الزبير «فدهدم» بهاء بين الدالين، {وَلاَ يَخَافُ عُقْبَٰهَا} أي ولا يخاف الله عاقبة هذه الفعلة كما تخاف الملوك عاقبة ما تفعله، وهذه إشارة إلى أنهم أذلاء عند الله تعالى، وقيل: لا يخاف رسول الله صالح عقبى هذه العقوبة ولا يخشى ضرراً يعود عليه من عذابهم، وقيل: قام الأشقى لعقر الناقة والحال أنه غير خائف عاقبة هذه الفعلة الشنعاء أي فهو كالآمن من نزول الهلاك به وبقومه، ففعل مع هذا الخوف الشديد فعل من لا يخاف ألبتة فنسب في ذلك إلى الحمق. وقرأ نافع، وابن عامر «فلا يخاف» بالفاء، والباقون بالواو، وهي للحال، أو للاستئناف الإخباري، وقرىء «ولم يخف» وهو مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم.

سورة والليل

مكية، هي إحدى وعشرون آية، إحدى وسبعون كلمة، ثلاثمائة وعشرون حرفاً، قال القفال رحمه الله: نزلت هذه السورة في أبي بكر وإنفاقه على المسلمين وفي أمية ابن خلف وبخله وكفره بالله، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَ لَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ} أي حين يغشى الشمس {وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ} أي ظهر بزوال ظلمة الليل {وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلأُنثَىٰ} أي والذي خلق صنفي الذكر والأنثى من كل ما له توالد. قرأ النبي صلى الله عليه وسلم «والذكر

والأنثى»، وقرأ ابن مسعود «والذي خلق الذكر والأنثى»، وعن الكسائي «وما خلق الذكر» بالجر والمعنى: وما خلقه الله تعالى أي ومخلوق الله، ثم يجعل الذكر بدلاً منه أي ومخلوق الله الذكر والأنثى. {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ} أي أن عملكم لمختلف في الجزاء لأن بعضه ضلال يوجب النيران وبعضه هدى يوجب الجنان، {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَ ٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِ ٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ} أي فأما من أعطى من ماله في سبيل الله واجتنب المحارم وصدق بالشرائع فسنهيئه للخصلة التي تؤدي إلى راحة، كدخول الجنة، {وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَ ٱسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِ ٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ} أي وأما من بخل بماله فلم يبذله في سبيل الخير واستغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة، وكذب بعدة الله من الخلف الحسن، فسنهيئه للخصلة المؤدية إلى الشدة كدخول النار، {وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ} أي ولا ينفعه ماله الذي جمعه في الدنيا إذا مات، أو أي شيء ينفعه ماله الذي بخل به، ولم يصحبه معه إلى آخرته إذا سقط في حفرة قبر أو في جهنم. {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ} أي إن الذي يجب علينا في الحكمة إذ خلقنا الخلق للعبادة أن نبين لهم وجوه التعبد فقد فعلنا ما كان فعله واجباً علينا في الحكمة، {وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَٱلأُولَىٰ} أي إن لنا ملك الدارين نعطي من نشاء ما نشاء فمن طلبهما من غيرنا فقد أخطأ الطريق فليطلب سعادتهما منا {فَأَنذَرْتُكُمْ} أي خوفتكم يا أهل مكة {نَاراً تَلَظَّىٰ} أي تتوقد. وقرىء شاذاً بالتاءين {لاَ يَصْلَٰهَآ إِلاَّ ٱلأَشْقَى ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ} أي لا يدخلها دخولاً لازماً مؤبداً إلا الكافر الذي هو شقي لأنه كذب بآيات الله، وأعرض عن طاعة الله. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في أمية بن خلف، وأمثاله الذين كذبوا محمداً والأنبياء قبله

{وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلأَتْقَى ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ} أي وسيبعد عنها المبالغ في اتقاء المعاصي الذي يعطي ماله ويصرفه في وجوه الحسنات طالباً أن يكون نامياً عند الله تعالى لا يريد بذلك رياء ولا سمعة، وروى الضحاك عن ابن عباس: عذب المشركون بلال بن رباح واسم أمه حمامة، وبلال يقول: أحد أحد، فمر النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «أحد ينجيك»، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: «يا أبا بكر إن بلالاً يعذب في الله» فعرف أبو بكر ما يريده رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانصرف إلى منزله فأخذ رطلاً من ذهب ومضى به إلى أمية بن خلف، فقال له: أتبيعني بلالاً قال: نعم، فاشتراه، فأعتقه، فقال المشركون ما فعل ذلك أبو بكر ببلال إلا ليد كانت لبلال عنده فأنزل الله تعالى قوله: {وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ} أي الأتقى {مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰإِلاَّ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلأَعْلَىٰ} أي لم يفعل أبو بكر ذلك مجازاة لأحد بيد كانت له عنده، لكن فعله ابتغاء وجه الله تعالى.

وقرأ يحيى بن وثاب برفع «الابتغاء» على البدل من محل «نعمة»، فإنه رفع إما على الفاعلية، أو على الابتداء و «من» مزيدة، ويجوز أن يكون مفعولاً له لأن المعنى لا يؤتي ماله إلا ابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة، {وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ} أي ما أنفق أبو بكر إلا لطلب رضوان الله، وبالله لسوف يرضى الله عنه، ولم يكن للنبي ولا لغيره عليه نعمة دنيوية، بل كان أبو بكر هو الذي ينفق على رسول الله، وإنما كان للنبي عليه نعمة الهداية

إلى الدين إلا أن هذه نعمة لا يجزى الإنسان بها قال ابن الزبير: كان أبو بكر يشتري الضعفة من العبيد فيعتقهم، فقال له أبوه: يا بني لو كنت تشتري من يمنع ظهرك، فقال: منع ظهري أريد، فأنزل الله تعالى: {وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى} إلى آخر السورة، وقرىء «يرضى» مبنياً للمفعول.

سورة الضحى

مكية، إحدى عشرة آية، أربعون كلمة، مائة وسبعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَٱلضُّحَىٰ} وهو أول النهار حين ترفع الشمس وتلقي شعاعها وتخصيصه بالإقسام به لأنه الساعة التي كلم الله موسى فيها، وألقي السحرة فيها سجداً {وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ} أي أظلم واسود، ونقل عن قتادة، ومقاتل، وجعفر الصادق أن المراد بالضحى هو الضحى الذي كلم الله تعالى فيه موسى عليه السلام، وبالليل ليلة المعراج، وقيل: إنما ذكر ساعة من النهار، وذكر الليل بكليته لأن النهار وقت السرور، والراحة، والليل وقت الوحشة، والغم، فهو إشارة إلى أن هموم الدنيا أدوم من سرورها، فإن الضحى ساعة والليل ساعات {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ} أي ما قطعك ربك قطع المودع، والمفارق.

وقرأ عروة بن الزبير، وابنه هشام، وابن أبي عبلة بتخفيف الدال أي ما تركك ربك يا أشرف الرسل منذ أوحى إليك تركاً تحصل به فرقة كفرقة المودع {وَمَا قَلَىٰ} أي ما أبغضك ربك منذ أحبك. روى البخاري عن جندب بن سفيان قال: اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت أم جمل امرأة أبي لهب فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث، فنزلت هذه الآية، وروي أن خولة كانت تخدم النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إن جرواً دخل البيت فدخل تحت السرير، فمات فمكث النبي صلى الله عليه وسلم أياماً لا ينزل عليه الوحي، فقال صلى الله عليه وسلم: «يا خولة ما حدث في بيتي إن جبريل عليه السلام لا يأتيني». قالت خولة: فكنست فأهويت بالمكنسة تحت السرير فإذا جرو ميت فأخذته فألقيته خلف الجدار فجاء نبي الله صلى الله عليه وسلم ترعد لحياه، وكان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة، فقال: «يا خولة دثريني». فأنزل الله تعالى هذه السورة ولما نزل جبريل عليه السلام سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن التأخر فقال: أما علمت أنّا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة، وروي أن الوحي تأخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أياماً لزجره سائلاً ملحاً، فقال المشركون: إن محمداً ودعه ربه وقلاه فنزلت، وروي أن سبب احتباس جبريل عليه السلام لأنه كان فيهم من لا يقلم الأظفار {وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ} أي وللأحوال الآتية خير لك من الماضية كأنه تعالى وعده بأنه سيزيد كل يوم عزاً إلى عز، ومنصباً إلى منصب، فيقول: لا تظن أني قليتك، بل إني أزيدك منصباً وجلالاً، ثم إن هذا التشريف وإن كان عظيماً إلا أن مالك عند الله في الآخرة خير وأعظم، أو وللآخرة خير لك من الدنيا لأن

الكفار في الدنيا يطعنون فيك، أما في الآخرة فأجعل أمتك شهداء على الأمم، وأجعلك شهيداً على الأنبياء، ثم أجعل ذاتي شهيداً لك كما قال تعالى: {وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيداً مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ} (الفتح: 82،92) {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ} من خيرات الدنيا والآخرة {فَتَرْضَىٰ}.

روي عن علي بن أبي طالب، وابن عباس أن هذا هو الشفاعة في الأمة كما يروى أنه صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية قال: إذاً لا أرضى وواحد من أمتي في النار، وعن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه قال: رضي جدي أن لا يدخل النار موحد، وهذا أيضاً وعده تعالى رسوله على أحوال الدنيا، فهو إشارة إلى ما أعطاه الله تعالى من الظفر بأعدائه يوم بدر، ويوم فتح مكة، ودخول الناس في الدين أفواجاً، والغلبة على قريظة، والنضير وإجلائهم وبث عساكره في بلاد العرب، وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن، وما هدم بأيديهم من ممالك الجبابرة، وما وهبهم من كنوز الأكاسرة، وما قذف في أهل الشرق والغرب من الرعب، وتهيب الإسلام وفشو الدعوة {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ} بمد الهمزة أي ضمك إلى من يكفلك، وقرأ أبو الأشهب «فأوى» ثلاثياً أي فرحمك، روي أن عبد الله بن عبد المطلب توفي وهو صلى الله عليه وسلم جنين قد أتت عليه ستة أشهر، ثم ولد رسول الله فكان مع عبد المطلب، ومع أمه آمنة، فماتت وهو ابن ست سنين فكان مع جده، ثم مات بعد آمنة بسنتين ورسول الله ابن ثمان سنين، وكان عبد المطلب يوصي أبا طالب به فكان هو الذي يكفل رسول الله بعد جده إلى أن بعثه الله للنبوة، فقام بنصرته صلى الله عليه وسلم، ثم توفي أبو طالب فذكره الله هذه النعمة روي أن أبا طالب قال يوماً لأخيه العباس: ألا أخبرك عن محمد بما رأيت منه، فقال: بلى، فقال: إني ضممته إلي فكنت لا أفارقه ساعة من ليل ولا نهار ولا أأتمن عليه أحداً حتى إني كنت أنومه في فراشي، فأمرته ليلة أن يخلع ثيابه وينام معي فرأيت الكراهة في وجهه، لكنه كره أن يخالفني، وقال: «يا عماه اصرف بوجهك عني حتى أخلع ثيابي إذ لا ينبغي لأحد أن ينظر إلى جسدي»، فتعجبت من قوله وصرفت بصري حتى دخل الفراش فلما دخلت معه في الفراش إذ بيني وبينه ثوب في غاية اللين وطيب الرائحة كأنه غمس في المسك، فجهدت لأنظر إلى جسده فما كنت أرى شيئاً وكنت أفتقده من فراشي مراراً فإذا قمت لأطلبه ناداني ها أنا يا عم فأرجع ولقد كنت أسمع منه مراراً كلاماً يعجبني، وذلك عند مضي بعض الليل وكان يقول في أول الطعام: «باسم الله الأحد»، فإذا فرغ من طعامه قال: «الحمد لله»، فتعجبت منه، ثم لم أر منه كذبة، ولا ضحكاً، ولا جاهلية، ولا وقف مع صبيان يلعبون.

{وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ} أي وجدك خالياً من الشريعة فهداك بإنزالها إليك، وقيل: وجدك ضالاً عن عبد المطلب فردك إليه، كما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: «ضللت عن جدي عبد المطلب، وأنا صبي ضائع كاد الجوع يقتلني، فهداني الله» وروي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم ضل في شعاب مكة وهو صبي فتعلق عبد المطلب بأستار الكعبة وقال: يا رب رد ولدي محمدا اردده رب واصطنع عندي يداً فما زال يردد

هذا عند البيت حتى أتاه أبو جهل على ناقة ومحمد بين يديه، وهـو يقـول: لا تدري ماذا ترى من ابنك، فقال عبد المطلـب ولـم قـال: إنـي أنخـت الناقـة وأركبته من خلفي فأبت الناقة أن تقوم، فلما أركبته أمـامي قـامت الناقـة، وكانت تقول: يا أحمق هو الإمـام فكيـف يقـوم خلـف المقتـدي، وقـال ابـن عباس: رده الله إلى جده بيد عدوه كما فعل بموسى حين حفظـه علـى يـد عـدوه، {وَوَجَـدَكَ عَـآئِلاً} أي فقيـراً كمـا روي أن فـي مصـحف عبـد اللـه «ووجـدك عـديماً»، وقـرأ اليمـاني «عيلاً» بكسـر اليـاء المشـددة كسـيد، {فَأَغْنَىٰ} أي أغناك بالقناعة، فصرت بحال يستوي عندك الحجر والـذهب لا تجد في قلبك سوى ربك، وقيل أغناك بمال أبي بكـر وبهيبـة عمـر. روي أن عمر قال حين أسلم والأصحاب كانوا يعبدون الله سرّاً: يا رسول اللـه ابـرز أنعبد نحن اللات جهراً ونعبد الله سراً، فقال صلى الله عليه وسـلم: «حـتى تكثر الأصحاب» فقال: حسبك الله وأنا، فقال تعـالى: {حَسْبُكَ ٱللَّـهُ وَمَـنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُـؤْمِنِينَ} (الأنفـال: 46) وقيـل أغنـاه اللـه تعـالى بتربيـة أبـي طالب، ولما اختلت أحوال أبي طالب أغناه بمال خديجـة، ولمـا اختـل ذلـك أغناه بمال أبي بكر، ولما اختل ذلك أمره بالهجرة، وأغناه بإعانة الأنصار، ثم أمره بالجهاد وأغناه بالغنائم، ثم قال صلى الله عليه وسـلم: «جعـل رزقـي تحت ظل رمحي» {فَأَمَّا ٱلْيَتِيـمَ فَلاَ تَقْهَـرْ} أي لا تحتقـر اليـتيم فقـد كنـت يتيماً كما قاله مجاهد، أو فلا تغلبه على ماله،

وقرىء «فلا تكهر» أي فلا تعبس وجهك إليه، وروي أن هذه الآية نزلت حين صاح النبي صلى الله عليه وسلم على ولد خديجة وإذا كان هذا العتـاب بمجرد الصياح أو العبوسة فـي الـوجه، فكيـف إذا أذل الـتيم أو أكـل مـاله؟ وروي أن موسى عليه السلام قال: إلهي بما نلت ما نلت قـال اللـه تعـالى: «أتذكر حيث هربت منك السخلة فلما قدرت عليها قلت أتعبت نفسـك، ثـم حملتها فلهذا السبب جعلتك ولياً على الخلق، فلما نال موسى عليه السـلام النبوة بالإحسان إلى الشاة فكيف بالإحسان إلى اليتيم، {وَأَمَّـا ٱلسَّـآئِلَ فَلاَ تَنْهَرْ} أي لا تغلظ له القول، بـل رده رداً لينـاً برفـق والمـراد مـن السـائل. مطلق السائل. روي أنه صلى الله عليـه وسـلم كـان جالسـاً فجـاء عثمـان بتمر فوضعه بين يديه، فأراد أن يأكل فوقف سائل بالباب فقال: رحـم اللـه عبداً يرحمنا فأمر بدفعه إلى السائل فكره عثمان ذلك وأراد أن يأكله النبي صلى الله عليه وسلم، فخرج واشتراه من السائل، ثـم رجـع السـائل وكـان النبي يعطيه ففعل ذلك ثلاث مرات، فقال له النبي صلى اللـه عليـه وسـلم أسائل أنت أم بائع فنزل {وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ} واختار الحسن أن المـراد من السائل من يسأل العلم، وروى الزمخشري أن النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم قال: «إذا رددت السائل ثلاثاً فلم يرجع فلا عليـك أن تزبـره» {وَأَمَّـا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} قال مجاهد: تلك النعمة هـي القـرآن فالتحـديث بـه أن يقرأه ويقرىء غيره، وروي عنه أيضاً أن تلك النعمـة هـي النبـوة أي بلّـغ مـا أنزل إليك من ربك، وروي عن الحسين بن علي رضي الله عنهما أنـه قـال: إذا عملت خيراً فحدث به إخوانك ليقتدوا بك إلا أن هذا إنمـا يحسـن إذا لـم يتضمن رياء، وظن أن غيره يقتدي بـه، وروي أن شخصـاً كـان جالسـاً عنـد النبي صلى الله عليه وسلم فرآه رث الثياب فقال صلى اللـه عليـه وسـلم:

«ألك مال» قال: نعم، فقال له صلى الله عليه وسلم: «إذا آتاك الله مالاً فلير أثره عليك» وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر النعمة على عبده».

سورة ألم نشرح

مكية، هي ثمان آيات، وتسع وعشرون كلمة، ومائة وثلاثة أحرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يروى عن طاوس وعمر بن عبد العزيز كانا يقولان: هذه السورة وسورة الضحى سورة واحدة، وكان يقرآنهما في الركعة الواحدة وما كانا يفصلان بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم. قال الجمل: ولما ذكر الله تعالى بعض النعم عليه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ} (الضحى: 3) إلخ أتبعه بما هو كالتتمة له وهو شرح الصدور فقال: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} قال في نور المقياس: وهذا معطوف على قوله تعالى: {وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ} (الضحى: 8) أي ألم نشرح لك يا أشرف الرسل قلبك للإسلام، ويقال ألم نوسع قلبك للنبوة، وقال الرازي: استفهم الله عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثبات الشرح فكأنه قيل شرحنا لك صدرك أي بالنبوة وغيرها حتى وسع مناجاتنا ودعوة الخلق. روي أن جبريل عليه السلام أتاه وهو عند مرضعته حليمة وهو ابن أربع سنين فشق صدره وأخرج قلبه وغسله ونقاه، ثم ملأه علماً وإيماناً، ثم رده في صدره وشق أيضاً عند بلوغه عشر سنين وعند البعثة وليلة الإسراء فمرات الشق أربع على الصحيح، وإنما ذكر الصدر لأنه محل الوسوسة، قال محمد بن علي الترمذي: القلب محل العقل والمعرفة، وهو الذي يقصده الشيطان فالشيطان يجيء إلى الصدر الذي هو حصن القلب فإذا وجد مسلكاً نزل فيه هو وجنده وبث فيه الهموم والغموم والحرص فيضيق القلب حينئذ ولا يجد للطاعة لذة ولا للإسلام حلاوة، وإذا طرد العدو في الابتداء حتى لم يجد مسلكاً حصل الأمن ويزول الضيق وينشرح الصدر ويتيسر له القيام بأداء العبودية، وإنما قال الله تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ} تنبيهاً على أن منافع الرسالة عائدة إليه صلى الله عليه وسلم كأنه تعالى قال: إنما شرحنا صدرك لأجلك لا لأجلي {وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ} أي خففنا عنك أعباء النبوة التي تثقل ظهرك من القيام بأمرها والمحافظة على حقوقها بأن يسرها الله عليه صلى الله عليه وسلم حتى تيسرت له، وقيل عصمناك عن الوزر الذي يثقل ظهرك، وقيل: لئن كان نزول السورة بعد موت أبي طالب وخديجة فلقد كان فراقهما عليه صلى الله عليه وسلم وزراً عظيماً، فوضع عنه الوزر برفعه إلى السماء حتى لقيه كل ملك وحياه فارتفع له الذكر فلذلك قال تعالى:

{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} أي رفع ذكره حيث قرن اسمه باسم الله تعالى في كلمة الشهادة والأذان والإقامة، وجعل طاعته من طاعته تعالى وصلى عليه هو وملائكته، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه وسمي رسول الله، ونبي الله ولو

أن رجلاً عبد الله تعالى وصدق بالجنة والنار وكل شيء ولم يشهد أن محمداً رسول الله لم ينتفع بشيء وكان كافراً، {فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً} ف «أل» في «العسر» الأول للعهد الحضوري وفي الثاني للعهد الذكري فالعسر واحد وهو العسر الذي كانوا فيه، فهو هو وتنكير «يسراً» للتفخيم كأنه قيل: إن مع العسر يسراً عظيماً ويسراً كاملاً فتناول يسر الدارين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لو كان العسر في جحر ضب لتبعه اليسر حتى يخرجه لن يغلب عسر يسرين» فقوله تعالى: {إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً} تكرير للتأكيدأو عدة مستأنفة بأن العسر مشفوع بيسر آخر، وفي مصحف ابن مسعود جملة واحدة مرة واحدة قال الرازي: والمراد من اليسرين في قوله صلى الله عليه وسلم: «لن يغلب عسر يسرين» يسر الدنيا ويسر الآخرة وهما استفتاح البلاد، وثواب الجنة وهذه الآية تثبيت لما قبلها، ووعد كريم بتيسير كل عسير له صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين كأنه قيل خولناك ما خولناك من جلائل النعم فكن على ثقة بفضل الله تعالى ولطفه فإن مع العسر يسراً كثيراً، {فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ} أي فإذا فرغت من عبادة فأتبعها بعبادة أخرى بأن تواصل بين بعض العبادات وبعض وأن لا تخلي وقتاً من أوقاتك منها.

قال قتادة والضحاك ومقاتل: إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فاتعب في الدعاء وارغب إلى ربك في المسألة يعطك، وقال الشعبي: إذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك، وقال مجاهد: إذا فرغت من أمر دنياك فاتعب وصل، وقال عبد الله بن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فاتعب في قيام الليل، وقال ابن حبان عن الكلبي: إذا فرغت من تبليغ الرسالة فاتعب واستغفر لذنبك وللمؤمنين، وقال علي بن أبي طلحة: إذا كنت صحيحاً فاجعل فراغك تعباً في العبادة، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني أكره أن أرى أحدكم فارغاً لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة، {وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَبْ} أي إلى ربك فارفع حوائجك واجعل رغبتك إليه خصوصاً ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه، وقرىء «فرغب» أي رغب الناس إلى طلب ما عنده تعالى.

سورة التين
مكية، ثمان آيات، أربع وثلاثون كلمة، مائة وخمسون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ} هما ثمران معلومان أقسم الله بهما لما فيهما من المصالح والمنافع، فإن التين فاكهة طيبة لا عجم له وغذاء لطيف سريع الهضم ودواء كثير النفع يلين الطبع ويحلل البلغم، ويسمن البدن، ويفتح سدد الكبد والطحال، ويقطع البواسير والزيتون فاكهة وآدام ودواء، وقال ابن زيد: التين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس، وقال محمد بن كعب: التين مسجد أصحاب أهل الكهف، والزيتون مسجد إيليا، وعن ابن عباس: التين مسجد نوح المبني على الجودي، والزيتون مسجد بيت

المقـدس، وقـال الضـحاك: الـتين المسـجد الحـرام، والزيتـون المسـجد الأقصى، وعن الربيع: هما جبلان بين همـذان وحلـوان، وقـال كعـب: الـتين دمشق والزيتـون بيـت المقـدس، وقـال شـهر بـن حوشـب: الـتين الكوفـة والزيتون الشام، {وَطُورِ سِينِينَ} وهو جبل ثبير وهو جبل بمدين الذي كلـم الله عليه موسى عليه السلام، {وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ} وهو مكة فهو أمين من أن يهاج فيه على من دخل فيه. {لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَـنِ تَقْـوِيمٍ} أي كائناً في أحسن ما يكون من تعديل صوره ومعنى فإنه تعالى خلقه مستوي القامة متناسب الأعضاء متصفاً بأكمل عقل، وفهم، وعلم، وأدب إذا تكامـل شبابه، {ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ} أي حال كونه أسفل سـافلين أي حيـث لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً لضعف بدنه وسمعه وبصره وعقله، فلا يكتب له وقتئذٍ حسنة أو رددناه مكاناً أسفل سافلين، وهـو النـار، وقـرأ عبـد اللـه أسفل «السـافلين» معرفـاً، والسـافلون هـم الضـعفاء والزمنـي والصـغار فالشيخ الكبير أسفل من هؤلاء جميعاً {إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُـواْ ٱلصَّٰـلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} وهذا الاستثناء على القول الأول منقطـع، والمعنـى: ثم رددناه أسفل ممن سفل بعد ذلك التحسـين فـي أحسـن الصـورة حيـث نكسناه في خلقه فقوس ظهره وضعف بصره، وسمعه، ولكن الـذين كـانوا صالحين من الهرمي فلهم ثواب دائم أو فلهم أجر غير ممنون به عليهم، أما على القول الثاني فهـو متصـل مـن ضـمير رددنـاه فـإنه فـي معنـى الجمـع والمعنى: ثم رددناه أسفل ممن سفل أي أقبح من كل قبيح صورة وأسـفل من كل سافل من أهل الدركات، وهم أهل النار إلا الذين كانوا صـالحين فلا نردهم أسفل سافلين.

{فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ} و «ما» اسم استفهام على وجه الإنكار والتعجـب والخطاب للإنسان على طريقة الالتفات أي فما الذي يحملك أيهـا الإنسـان على التكذيب بالبعث بعد ظهور هذه الدلالة الناطقة بالجزاء، أي فـإن خلـق الإنسان من النطفة وتقويمه بشراً سوياً وتحويله من حال إلى حـال كمـالاً ونقصاناً من أوضح الدلائل على قدرة الله تعالى على البعث والجـزاء فمـن شاهد تلك الحالة، ثم بقي مصراً على إنكـار الحشـر فلا شـيء أعجـب منـه وقيل الخطاب للرسول، و «ما» إما اسم استفهام أو بمعنـى مـن أي، فـأي شيء يجعلك كاذباً بسبب إنكار الكافر الحساب بعـد هـذه الـدلائل، أو فمـن يكذبك بالحساب يا أيها الرسول بعد ظهور هذه الدلائل {أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِـأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ} يحكم على الكفار بمـا يسـتحقونه مـن العـذاب، أو أليـس الـذي فعل ما ذكر بأتقن الحاكمين صنعاً في كل ما خلق حتى يتوهم عدم الإعـادة والجزاء، فإن عدم إمكانهما يقـدح فـي القـدرة وعـدم وقوعهمـا يقـدح فـي الحكمة، كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاء وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَـا بَٰطِلاً ذَٰلِـكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} (ص: 72) وفي الحديث: «من قـرأ والـتين إلـى آخرهـا فليقل: بلى وأنا على ذلـك مـن الشـاهدين» أي سـواء كـان فـي الصـلاة أو خارجها.

سورة العلق

وتسمى سورة القلم، وسورة اقرأ، مكية، هي تسع عشرة آية، اثنتان وسبعون كلمة، مائتان وسبعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ} أي اقرأ القرآن مفتتحاً باسم ربك أي قل باسم الله، ثم اقرأ القرآن { ٱلَّذِى خَلَقَ} كل شيء {خَلَقَ ٱلإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ} أي من دم جامد { ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلأَكْرَمُ} أي امض لما أمرت به، والحال أن ربك الذي أمرك بالقراءة هو الأكرم { ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ} أي علم الإنسان الخط بالقلم، وعلم ينصب مفعولين وقال قتادة: القلم نعمة من الله تعالى ولولا ذلك لم يقم دين، ولم يصلح عيش. روى عبد الله ابن عمرو قال: «قلت يا رسول الله أأكتب ما أسمع منك من الحديث قال: «نعم فاكتب فإن الله تعالى علم بالقلم» وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسكنوا نساءكم الغرف ولا تعلموهن الكتابة» أي حذراً من تطلعهن إلى الرجال، وحذراً من الفتنة لأنهن قد يكتبن لمن يهوين {عَلَّمَ ٱلإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} أي علمه بالقلم وبدونه من الأمور الجلية والخفية ما لم يخطر بباله {كَلاَّ إِنَّ ٱلإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰ} أي حقاً يا محمد إن الكافر يتكبر على ربه لأن رأى نفسه مستغنياً عن الله بالمال نزلت الآيات من ههنا إلى آخر السورة في أبي جهل. روي أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أتزعم أن من استغنى طغى فاجعل لنا جبال مكة فضة وذهباً لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك، فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن شئت فعلنا ذلك، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء إبقاء عليهم. {إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰ} أي إن إلى مالك أمرك رجوع الكل بالموت والبعث، فسترى حينئذٍ عاقبة تمردك

{أَرَأَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْداً إِذَا صَلَّىٰ} و «أرأيت» لحمل المخاطب وهو النبي على التعجب وهي تتعدى إلى مفعولين لأنها بمعنى أخبرني فالمفعول الأول «الذي» والمفعول الثاني محذوف وهو جملة استفهامية كالجملة الواقعة بعد «أرأيت» الثالثة أي أخبرني يا محمد الناهي من يصلي ألم يعلم أن الله يطلع على أحواله فيجازيه بها حتى اجترأ على ما فعل. روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل في ملأ من طغاة قريش: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم، فقالوا: نعم قال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ليطأ على رقبته فنكص على عقبيه وهو يتقي بيديه فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم، فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة فأنزل الله هذه الآية: {أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَىٰ ٱلْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰ} ومفعولا «أرأيت» محذوفان حذف الأول لدلالة المفعول الأول من «أرأيت» الأولى عليه وحذف الثاني لدلالة مفعول «أرأيت» الثالثة عليه وأو بمعنى الواو، والمعنى: أخبرني يا محمد ذلك الناهي إن صار على الهدى وأمر بالتقوى أما كان ذلك خيراً له من الكفر بالله والنهي عن خدمته

كأنه تعالى يقول: تلهف يا مخاطب عليه كيف فوت على نفسه المراتب العالية، وقنع بالمراتب الدنيئة، وهو رجل عاقل ذو ثروة لا يليق به ذلك {أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ} والجملة الاستفهامية تكون في موضع المفعول الثاني ل «أرأيت» ومفعولها الأول محذوف وهو ضمير يعود إلى الموصول، أو اسم إشارة يشار به إليه أي أرأيته يا محمد إن كذب هذا الكافر بتلك الدلائل الواضحة وأعرض عن خدمة خالقه ألم يعلم يعقله أن الله يرى منه هذه الأعمال القبيحة أفلا ينزجر عنها {كَلَّا} أي لن يصل أبو جهل إلى ما يقول: إنه يقتل محمداً أو يطأ عنقه، بل تلميذ محمد هو الذي يقتله ويطأ صدره، وهو عبد الله بن مسعود {لَئِن لَّمْ يَنتَهِ} أي والله لئن لم ينته أبو جهل عن أذى النبي صلى الله عليه وسلم، {لَنَسْفَعاً بِٱلنَّاصِيَةِ} أي لنأخذن الناصية ولنجرن بها إلى النار في الآخرة أو لنقبضن على الناصية في الدنيا روي أن أبا جهل لما قال: إن رأيته يصلي لأطأن عنقه، فأنزل الله تعالى هذه السورة، وأمره جبريل عليه السلام بأن يقرأها على أبي جهل ويخر لله ساجداً في آخرها ففعل فعدا إليه أبو جهل ليطأ عنقه فلما دنا منه نكص على عقبيه راجعاً فقيل له: ما لك قال: إن بيني وبينه فحلاً فاغراً فاه لو مشيت إليه لالتقمني، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» وروي أنه لما نزلت سورة {ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ} قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «من يقرؤها منكم على رؤساء قريش» فقام ابن مسعود وقال: أنا يا رسول الله، ثم إنه وصل إليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبة فافتتح قراءة السورة، فقام أبو جهل فلطمه فشق أذنه وأدماه فانصرف وعينه تدمع فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم رق قلبه وأطرق رأسه مغموماً، فإذا جبريل عليه السلام يجيء ضاحكاً مستبشراً فقال صلى الله عليه وسلم: «يا جبريل تضحك وابن مسعود يبكي» فقال: ستعلم فلما ظفر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ في الجهاد، فقال صلى الله عليه وسلم له: «خذ رمحك والتمس في الجرحى من كان به رمق فاقتله فإنك تنال ثواب المجاهدين» فأخذ يطالع القتلى فإذا أبو جهل مصروع يخور فخاف أن يكون به قوة فيؤذيه فوضع الرمح على منخره من بعيد فطعنه فلما عرف عجزه ارتقى إلى صدره بحيلة، فلما رآه أبو جهل قال: يا رويعي الغنم لقد ارتقيت مرتقى صعباً، فقال ابن مسعود: الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فقال له أبو جهل: بلغ صاحبك أنه لم يكن أحد أبغض إلي منه في حياتي، ولا أحد أبغض إلي منه في حال مماتي ثم قال لابن مسعود: اقطع رأسي بسيفي هذا لأنه أحدّ فلما قطع رأسه لم يقدر على حمله فلما لم يطقه شق أذنه وجعل الخيط فيه وجعل يجره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل بين يديه يضحك، ويقول يا محمد: أذن بأذن، لكن الرأس ههنا مع الأذن.

وقرىء «لنسفعن» بالنون المشددة فالفاعل لهذا الفعل هو الله والملائكة، وقرأ ابن مسعود لأسفعن أي يقول الله: يا محمد أنا الذي أتولى إهانة أبي جهل {نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ} في قولها {خَاطِئَةٍ} في فعلها لأن صاحبها متمرد على الله تعالى لأنه كان كاذباً على الله تعالى في قوله: إنه تعالى

لم يرسل محمداً وكاذباً على رسوله في قوله: إن محمداً ساحر، أو كذاب، أوليس بنبي، و «ناصية» بدل من الناصية، وقرىء «ناصية» بالرفع والتقدير هي ناصية، وقرىء ناصية بالنصب وكلاهما على الشتم، {فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ} أي أهل مجلسه الذين يجتمعون فيه للتشاور، أو لأنه مجلس العطاء والجود {سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ} هم الملائكة الغلاظ الشداد كما قاله الزجاج. قال ابن عباس: كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا فزبره النبي صلى الله عليه وسلم، فقال أبو جهل: والله إنك لتعلم بأني أكثر أهل الوادي نادياً فأنزل الله تعالى {فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ} قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله فكأنه تعالى لما عرفه أنه مخلوق من علق فلا يليق به التكبر، فهو عند ذلك ازداد تعززاً بماله ورياسته في مكة، ويروى أنه قال: ليس بمكة أكرم مني، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة وبلغ إلى قوله تعالى: {لَنَسْفَعاً بِٱلنَّاصِيَةِ} قال أبو جهل: أنا أدعو قومي حتى يمنعوا عني ربك. قال الله تعالى: {فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ} فلماذ ذكر الزبانية رجع فزعاً فقيل له: خشيت منه قال: لا، ولكن رأيت عنده فارساً وهددني بالزبانية فلا أدري الزبانية، ومال إلى الفارس فخشيت منه، وقيل: كان جبريل وميكائيل عليهما السلام على كتفيه صلى الله عليه وسلم في صورة الأسد قال ابن عباس رضي الله عنهما: والله لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته معاينة، وقرىء «ستدعى الزبانية» على المجهول أي ليجروه إلى النار {كَلاَّ} أي لن يصل أبو جهل إلى ما يتصلف به من أنه يدعو قومه {لاَ تُطِعْهُ} أي أبا جهل فيما يأمرك به من ترك الصلاة، بل دُم على ما أنت عليه من مخالفته {وَ ٱسْجُدْ} أي صل وتوفر على عبادة الله تعالى فعلاً وإبلاغاً، وقلل فكرك في هذا العدو، فإن الله مقويك وناصرك {وَ ٱقْتَرِب} أي ابتغ بسجودك قرب المنزلة من ربك.

سورة القدر

مدنية، قال الواحدي: إنها أول سورة نزلت بالمدينة، خمس آيات، ولاثون كلمة، مائة وأحد وعشرون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ} أي إنا أنزلنا القرآن جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ على كتبة ملائكة سماء الدنيا إلى بيت العزة منها، ثم نجمته السفرة على جبريل فكان جبريل ينزله على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع، والحاجة إليه ومعنى القدر التقدير، وسميت ليلة القدر بذلك لأن الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمره إلى مثلها من السنة القابلة من أمر الموت، والأجل، والرزق وغير ذلك، ويسلمه إلى مدبرات الأمور وهم أربعة من الملائكة: إسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل، وجبريل عليهم السلام، والجمهور على أنها مختصة برمضان واختلفوا في تعيينها، وقال بعضهم: إنها ليلة السابع والعشرين لأن فيها أمارات ضعيفة منها: ما روي أن عمر سأل

الصحابة عن ليلة القدر، ثم قال لابن عباس: غص يا غواص، فقال زيد بن ثابت: أحضرت أولاد المهاجرين، وما أحضرت أولادنا فقال عمر: لعلك تقول إن هذا غلام، ولكن عنده ما ليس عندكم، فقال ابن عباس: أحب الإعداد إلى الله تعالى الوتر وأحب الوتر إليه السبعة فذكر السموات السبع، والأرضين السبع، والأسبوع، ودركات النار، وعدد الطواف، والأعضاء السبعة فدل ذلك العدد على أنها السابعة والعشرون ومنها قول ابن عباس: إن هذه السورة ثلاثون كلمة، وقوله تعالى: {هِىَ} هو سابع وعشرون ومنها ما نقل عن ابن عباس أنه قال: ليلة القدر تسعة أحرف وهو مذكور ثلاث مرات فتكون الجملة سبعة وعشرين، ومنها ما روي أنه كان لعثمان بن أبي العاص عبد فقال: يا مولاي إن البحر يعذب ماؤه ليلة من الشهر، قال: إذا كانت تلك الليلة فاعلمني فإذا هي السابعة والعشرون، {وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ} أي ما غاية فضلها ومنتهى علو قدرها، ثم بين الله فضلها من ثلاثة أوجه، أو أربعة بقوله تعالى: {لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ} وهي ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر أي إن العبادة فيها خير من العبادة في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

قال مجاهد: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد حتى يمسي فعل ذلك ألف شهر فتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون من ذلك، فأنزل الله هذه الآية أي ليلة القدر لأمتك خير من ألف شهر لذلك الإسرائيلي الذي حمل السلاح ألف شهر، وقيل كان ملك سليمان خمسمائة شهر، وملك ذي القرنين خمسمائة شهر، فجعل الله تعالى العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيراً من ملكهما، وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في منامه إن بني أمية يطأون منبره صلى الله عليه وسلم واحداً بعد واحد، وفي رواية ينزون على منبره نزو القردة، فشق ذلك عليه صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه السورة، ثم قال القاسم بن فضل: فحسبنا ملك بني أمية فإذا هو ألف شهر فكأن الله تعالى يقول: أعطيتك يا أشرف الخلق ليلة هي في السعادات الدينية أفضل من السعادات الدنيوية في أيام ملك بني أمية، ومن المعلوم أن الطاعة في ألف شهر أشق من الطاعة في ليلة واحدة لكن الفعل الواحد قد يختلف حاله في الحسن والقبح بسبب اختلاف الوجوه. ألا ترى أن صلاة الجماعة تفضل على صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجة مع أن صلاة الجماعة قد تنقص صورة فإن المسبوق سقطت عنه ركعة واحدة وأيضاً فأنت إذا قلت لمن يرجم بالزنا هذا زانٍ فلا بأس، ولو قلته للنصراني فهو قذف يوجب التعزير ولو قلته للمحصن فهو قذف يوجب الحد، ولو قلته في حق عائشة كان ذلك القول كفراً، ثم القائل بقوله: هذا زانٍ قد ظن أن هذه اللفظة سهلة مع أنها أثقل من الجبال، فثبت بهذا أن الأفعال تختلف آثارها في الثواب والعقاب لاختلاف وجوهها فلا يبعد أن تكون الطاعة القليلة في الصورة مساوية في الثواب للطاعات الكثيرة. {تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ} روي أنه إذا كان ليلة القدر تنزل الملائكة، وهم سكان سدرة المنتهى، وجبريل ومعه أربعة ألوية فينصب لواء على قبر النبي صلى الله عليه وسلم، ولواء على

ظهر بيت المقدس، ولواء على ظهر المسجد الحرام، ولواء على ظهر طور سيناء ولا يدع بيتاً فيه مؤمن أو مؤمنة إلا دخله وسلم عليه يقول: يا مؤمن أو يا مؤمنة السلام يقرئكم السلام إلا على مدمن خمر، وقاطع رحم، وآكل لحم خنزير، وقوله: بإذن ربهم متعلق ب «تنزّل» أو بمحذوف هو حال من فاعله أي متلبسين بأمر ربهم فإنهم لا يتصرفون تصرفاً ما إلا بأمره، وقوله: «من كل أمر» متعلق ب «تنزّل» أي تنزل أولئك في تلك الليلة من أجل كل أمر قضاه الله تعالى لتلك السنة إلى عام قابل، فكل واحد منهم نزل لأمر آخر.

عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه قال: «إن الله يقدر المقادير في ليلة البراءة» أي وهو نصف شعبان فإذا كان ليلة القدر يسلمها إلى أربابها، وقرىء «من كل امرىء» أي من أجل كل إنسان فإن الملائكة يرون في الأرض أنواع الطاعات التي لم يروها في عالم السمٰوات. {سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ} ف «سلام» خبر مقدم و «هي» مبتدأ مؤخر أي تلك الليلة سالمة عن الرياح والأذى والصواعق، ومن كل آفة كما قاله أبو مسلم، وابن عباس و «حتى» متعلق ب «تنذّل» أي أن الملائكة ينزلون فوجاً فوجاً من ابتداء الليل إلى طلوع الفجر فترادف النزول لكثرة سلامهم على أهل الصوم والصلاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم تلك الليلة، وقيل: إن «حتى» متعلق ب «سلام» بناء على إن الفصل بين المصدر ومعموله بالمبتدأ مغتفر في الجار والمجرور أي إن ليلة القدر سلام إلى طلوع الفجر أي تسليم الملائكة على المطيعين، ويقال: إن ليلة القدر من أولها إلى طلوع الفجر سالمة من التفاوت والنقصان، فإن العبادة في كل جزء من أجزاء أوقاتها خير من ألف شهر، فليست ليلة القدر كسائر الليالي في أنه يستحب للفرض الثلث الأول وللتطوع النصف وللدعاء السحر، بل هي متساوية الأوقات، وقيل: إن الوقف عند قوله تعالى: {سَلَٰمٌ} فقوله تعالى: من كل أمر متعلق به وقوله: {سَلَٰمٌ} خبر بعد خبر كقوله: {تُنَزَّلَ} وقوله تعالى: {هِيَ} مبتدأ وخبره ما بعده، والمعنى كما قاله ابن عباس: ليلة القدر سلامة من كل أمر مخوف، ومن كل شرور، وفضلها مستمر إلى طلوع الفجر، وقرأ الكسائي «مطلع» بكسر اللام.

سورة البيِّنة

وتسمى سورة لم يكن وسورة القيمة، وسورة البرية، وسورة منفكين، مدنية، ثمان آيات، أربع وتسعون كلمة، ثلاثمائة وتسعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ} أي اليهود والنصارى {وَٱلْمُشْرِكِينَ} أي عبدة الأصنام {مُنفَكِّينَ} عن كفرهم {حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ} وهي الرسول وسمي بالبينة لأن مجموع الأخلاق الحاصلة فيه كان بالغاً إلى حد كمال الإعجاز أي أن الكفار من الفريقين كانوا يقولون قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم لا ننفك عما نحن عليه من ديننا ولا نتركه

حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة، والإنجيل وهو محمد عليه السلام فحكى الله تعالى ما كانوا يعدون اجتماع الكلمة، والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول، ثم ما أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول، وقيل: إن تقدير الآية لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم وإلى أن جاءتهم البينة أي التي كانت ذاته بينة على نبوته، وقيل: المعنى لم يكن الذين كفروا منفكين عن ذكر محمد بالمناقب والفضائل حتى أتاهم بيان ما سبق ذكره في التوراة والإنجيل على لسان موسى وعيسى من صفات محمد صلى الله عليه وسلم.

وقرىء «والمشركون» عطفاً على الموصول {رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ} بالرفع بدل كل من كل من البينة، وقرأ عبد الله «رسولاً» بالنصب حالاً من «البينة» {يَتْلُو صُحُفاً} أي كتباً {مُّطَهَّرَةً} أي منزهة عن الباطل {فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ} أي في تلك الكتب أحكام مستقيمة تبين الحق من الباطل، {وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ} أي وما اختلفوا في وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة الدالة على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الموعود في كتابهم دلالة جلية، {وَمَآ أُمِرُوۤاْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ} و «الواو» للحال و «اللام» بمعنى الباء أي والحال أن هؤلاء الكفار ما أمروا في التوراة، والإنجيل إلا بأن يعبدوا الله جاعلين عبادتهم خالصة له تعالى لا يريدون رياء ولا سمعة، وقرأ عبد الله «إلا أن يعبدوا الله» بإبدال «اللام» ب «أن» {حُنَفَآءَ} أي مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام، {وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَلِكَ دِينُ ٱلقَيِّمَةِ} أي وذلك المذكور من عبادة الله بالإخلاص وإقام الصلاة، وإعطاء الزكاة دين المستقيم و «الهاء» ههنا قافية السورة، وقرىء الدين القيمة {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَ ٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ} وبدأ الله بأهل الكتاب لأنهم كانوا يطعنون في نبوته صلى الله عليه وسلم فجنايتهم أعظم لأنهم أنكروا مع العلم به وأيضاً إنه صلى الله عليه وسلم كان يقدم حق الله على حق نفسه فكأنه تعالى قال له: كما قدمت حقي على حقك فأنا أقدم حقك على حق نفسي فمن ترك الصلاة طول عمره لا يكفر ومن طعن في شعرة من شعراتك يكفر فأهل الكتاب طعنوا في الرسول والمشركون طعنوا في الله {أُوْلَٰئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ} أي الخليقة فهم شر من السراق لأنهم سرقوا من كتاب الله صفة محمد صلى الله عليه وسلم وشر من قطاع الطريق لأنهم قطعوا طريق الحق على الخلق وشر من الجهال الأجلاف لأن الكبر مع العلم يكون كفر عناد فيكون أقبح {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ} قرأ نافع، وابن ذكوان «البريئة» بالهمز في الموضعين، والباقون بياء مشددة {جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ} معدن النبيين والمقربين {تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلأَنْهَٰرُ} أي الأربعة وهي الخمر، والماء، والعسل، واللبن {خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَداً} و «خالدين» حال من مقدر فعامله محذوف أي دخلوها، ولا يجوز أن يكون حالاً من «هم» في جزاؤهم لئلا يلزم الفصل بين المصدر ومعموله بأجنبي وقوله: {عِندَ رَبّهِمْ} حال من «جزاؤهم» أو ظرف له و «أبداً» منصوب ب «خالدين».

لطيفة: قال بعض الفقهاء: لو قال لفلان: علي كذا فهو إقرار بالدين، ولو قال: لا شيء لي على فلان، فهذا يختص بالديون، وله أن يدعي الوديعة، ولو قال: لا شيء لي عند فلان إنصرف إلى الوديعة دون الدين، ولو قال: لا شيء لي قبل فلان إنصرف إلى الدين والوديعة معاً إذا عرفت هذا، فقوله: {عِندَ رَبِّهِمْ} يفيدانه وديعة والوديعة عين، وهو أشرف من الدين {رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ} بأن يعظمهم ويمدحهم فإن الرضا عن العامل غير الرضا بعمله، {وَرَضُواْ عَنْهُ} أي فرحوا بما جازاهم من الثواب وبما أعطاهم من أنواع الكرامات. {ذَلِكَ} أي المذكور من الجزاء والرضوان {لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} وصاحب الخشية هو العالم بشؤون الله تعالى، فإن الخشية مناط لجميع الكمالات العلمية والعملية المستتبعة للسعادة الدينية والدنيوية.

سورة الزلزلة

مدنية، تسع آيات، خمس وثلاثون كلمة، مائة وتسعة وأربعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلأَرْضُ زِلْزَالَهَا} أي إذا تحركت الأرض حركة شديدة فانكسر ما عليها من الشجر والجبال والبنيان، {وَأَخْرَجَتِ ٱلأَرْضُ أَثْقَالَهَا} أي أحمالها من الأموال، أو الأموات، ثم إن كان المراد من هذه الزلزلة الزلزلة الأولى فالمعنى: أخرجت الأرض الكنوز في زمن بعد عيسى، أو عند النفخة الأولى، فيمتلىء ظهر الأرض ذهباً ولا يلتفت أحد إليه، فكأن الذهب يصيح ويقول: إما كنت تخرب دينك ودنياك لأجلي، وإن كان المراد منها الزلزلة الثانية عند النفخة الثانية، فالمعنى: أخرجت الأرض الموتى أحياء كالخروج من الأم وقت الولادة، أو لفظتهم ميتين كما دفنوا، ثم يحييهم الله تعالى، وذلك على الخلاف بين العلماء، {وَقَالَ ٱلإِنسَـٰنُ} أي الكافر بطريق التعجب والمؤمن بطريق الاستعظام {مَا لَهَا} أي أي شيء ثبت للأرض تزلزلت بهذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما في بطنها {يَوْمَئِذٍ} أي يوم إذ كان ما ذكر، وهو بدل من إذا {تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا} جواب إذا. وقرأ ابن مسعود «تنبىء أخبارها»، وقرأ سعيد بن جبير «تنبي» بسكون النون بأن يجعل الله الأرض عاقلاً ناطقاً، ويعرفها جميع ما عمل أهلها فحينئذٍ تشهد لمن أطاع وعلى من عصى {بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا} و «الباء» إما سببية متعلق ب «تحدّث» أي تحدث الأرض أخبارها بسبب أمره تعالى إياها بالتحديث بأخبارها، وإما تعدية ل «تحدّث» فتكون هذه الجملة بدلاً من «أخبارها» فالمعنى: تحدث الأرض بأخبارها ب أن رب ك أذن لها في الكلام {يَوْمَئِذٍ} منصوب ب «يصدر» أي يوم إذ يقع ما ذكر {يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ} من قبورهم إلى موقف الحساب {أَشْتَاتاً} أي فرقاً فرقاً فريق يذهب إلى الموقف راكباً مع الثياب الحسنة أبيض الوجه والمنادي بين يديه ينادي هذا ولي الله، وفريق يذهب إليه حافياً عارياً مع السلاسل والأغلال أسود الوجه والمنادي ينادي بين ي ديه هذا عدو الله. {لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ} بضم الياء أي

ليريهم الله تعالى أعمالهم مكتوبة في الصحائف وهي توضع بين أيديهم والمرئي هو الكتاب، وقرىء «ليروا» بفتح الياء، وهو مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم، {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ} أي وزن نملة صغيرة {خَيْراً يَرَهُ} قال أحمد بن كعب القرظي: فمن يعمل مثقال ذرة من خير وهو كافر فإنه يرى ثواب ذلك في الدنيا حتى يلقى الآخرة، وليس له فيها شيء، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه، وماله، وأهله، وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله تعالى شر، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً، {وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ} أي ميزان أصغر النمل {شَرّاً يَرَهُ} قال ابن عباس: ليس من مؤمن، ولا كافر عمل خيراً، أو شراً إلا أراه الله إياه، فأما المؤمن فيغفر الله سيئاته، ويثيبه بحسناته، وأما الكافر فترد حسناته ويعذب بسيئاته، وقوله تعالى: {خَيْرًا} و {شَرّاً} منصوبان على التمييز من «مثقال» أو على البدل من «مثقال»، و «يره» جواب الشرط مجزوم بحذف الألف، وقرأ ابن عباس، والحسين بن علي، وزيد بن علي، وكذا عاصم في رواية «يره» مبنياً للمفعول، وقرأ عكرمة «يراه» بالألف.

سورة والعاديات

مكية، إحدى عشرة آية، أربعون كلمة، مائة وثلاثة وستون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَ ٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحاً} أي والخيل الجارية بشدة في الغزو تصوت أنفاسهن من الجري، والضبح صوت يسمع من صدور الخيل عند شدة الجري، وليس بصهيل، ولا حمحمة، بل هو صوت نفس، وقال علي رضي الله عنه وكرم وجهه: أي وإبل الحاج الجارية من عرفة إلى مزدلفة، ومن مزدلفة إلى منى تمد أعضاءها في سيرها، و «ضبحاً» حال بمعنى اسم الفاعل، {فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحاً} أي فالخيل التي تطأ الخصي صاكات بحوافرها ما يخرج النار كنار حباحب وهو رجل من العرب أبخل الناس الذي في العساكر لا يوقد ناراً حتى ينام الناس، ثم يوقدها فإذا انتبه أحد أطفأها لئلا ينتفع بها أحد فشبهت هذه النار التي تنقدح من حوافر الخيل بتلك النار التي لم يكن فيها نفع، أو يقال فالجماعة الذين يركبون الإبل وهم الحجيج الموقدون نيرانهم بالمزدلفة، {فَ ٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحاً} أي فالجماعة الذين يركبون الخيل الذين يهجمون على الأعداء للنهب، أو للقتل في وقت صبح لير، وإما يأتون وما يذرون، أو فالجماعة الذين يندفعون من جمع إلى منى ركباناً بإسراع السير صبيحة يوم النحر {فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً} أي فهيجن في وقت الصبح، أو بالجري غباراً، أو فهيجن في المغار صباحاً، فتوسطن في ذلك الوقت أو بالغبار جمعاً من جموع الأعداء.

وقرأ أبو حيوة «فأثرن» بالتشديد أي أظهرن بجريهن غباراً وقرىء «فوسطن» بالتشديد أي جعلن جمع الأعداء في ذلك الوقت، أو في ذلك المكان، أو بجريهن، أو بالغبار في الوسط، أو قطعن جمع الأعداء نصفين. روي أنه صلى الله عليه وسلم بعث خيلاً فمضى شهر لم يأته منهم خبر،

فنزلت هذه الآيات، وعن محمد بن كعب قال: النقع ما بين مزدلفة ومنى الجمع مزدلفة، فالمعنى: فتحركن وقت الصبح أو بالجري في وادي محسر فصرن بجريهن وسط مزدلفة، أو يكون المعنى: فأظهرن في ذلك الوقت أو في جريهن صباحاً بالتلبية فجعلن مزدلفة بجريهن في الوسط ويتأكد حمل الآيات على الإبل، أو مع خيول الحجاج بما روى أبي في فضل هذه السورة مرفوعاً: «من قرأها أعطي من الأجر بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعاً» {إِنَّ ٱلإِنسَٰنَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} أي إن طبع جنس الإنسان لكفور بنعمة ربه كما قاله ابن عباس وغيره، وهذا بلسان ربيعة ومضر أو لربه لوّام فيعد المصائب، والمحن، وينسى النعم، والراحات كما قاله الحسن، ويقال: عاص بربه بلسان حضرموت، ويقال: بخيل بلسان بني مالك بن كنانة، وقيل: المراد بالإنسان الكافر كما قال ابن عباس: إن هذه الآية نزلت في قرط بن عبد الله بن عمرو بن نوفل القرشي، وقيل: في أبي حباحب أي وهما كافران {وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ} أي وإن الرب تعالى على ذلك الصنع لشهيد حافظ، {وَإِنَّهُ} أي الإنسان {لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ} أي المال {لَشَدِيدٌ} أي قوي ولطلبه مطيق أو إن الإنسان وهو قرط أو أبو حباحب لأجل حب المال لبخيل ممسك، {أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ} أي أفلا يعلم الإنسان قرط، أو أبو حباحب في الدنيا أنه تعالى يجازيه إذا أخرج ما في القبور من الأموات، والعامل في «إذا» ما دل عليه قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ} ومعنى علم الله بهم يوم القيامة مجازاته لهم، وأتى ب «ما» لأن غير المكلفين الذين في الأرض أكثر، {وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ} أي بين ما في القلوب من الكفر، والإيمان، والبخل والسخاوة.

وقرىء «حصل» مبنياً للفاعل ومخففاً أي ظهر ما في القلوب من الأسرار الخفية. {إِنَّ رَبَّهُم} أي الإنسان {بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ} وقوله تعالى: {بِهِمُ} و {يَوْمَئِذٍ} متعلقان ب «خبير» وجمع الضمير العائد إلى الإنسان اعتباراً بمعناه لأنه اسم جنس أي أفلا يعلم الإنسان أن ربهم عالم بهم يجازيهم في يوم البعث فلا حاكم يروج حكمه، ولا عالم تروج فتواه يومئذٍ إلا هو، وقرأ أبو السمال «أن ربهم بهم يومئذ خبير» بفتح همزة «أن» وإسقاط اللام من «لخبير».

سورة القارعة

مكية، عشر آيات، ست وثلاثون كلمة، مائة واثنان وخمسون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{ ٱلْقَارِعَةُ} أي الصيحة التي تقرع القلوب {مَا ٱلْقَارِعَةُ} أي أي شيء عجيب هي في الفخامة والفظاعة، {وَمَآ أَدْرَاكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ} أي وأي شيء أعلمك يا أشرف الرسل ما شأن القارعة. {يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ} و «يوم» مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف وحركته الفتح لإضافته إلى الفعل وإن كان مضارعاً كما هو رأي الكوفيين أي هي يوم يكون الناس فيه {كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ} أي المفرق فالله تعالى شبه الناس في وقت البعث بالفراش

المنشور في الكثرة، والتطاير إلى الداعي لأنهم لما بعثوا يموج بعضهم في بعض كالفراش، وهو الحيوان الذي يتهافت في النار {وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ} أي وتصير الجبال كالصوف الذي ينفش باليد في تفرق أجزائها وتطايرها في الجو، {فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ} أي فمن ترجحت مقادير حسناته، فهو في عيشة ذات رضا يرضاها صاحبها أي فهو في الجنة بغير حساب أما من استوت حسناته وسيئاته فيحاسب حساباً يسيراً، {وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} أي وأما من طاشت حسناته فترجحت السيئات على الحسنات فأم رأسه نازلة في النار أي فيهوى في النار على هامته، ثم إن كان مؤمناً فإما أن يعذب بقدر ذنوبه، ثم يخرج منها إلى الجنة، وإما أن يشفع فيه، وإن كان كافراً فيخلد في النار. {وَمَآ أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ} أي وأي شيء أعلمك يا أكرم الرسل ما هاويه والهاء للسكت.

وقرأ حمزة في الوصل بغير هاء ووقف بها، والباقون بإثباتها وصلاً ووقفاً لأنها ثابتة في المصحف {نَارٌ حَامِيَةٌ} أي هي نار متناهية حرها فسائر النيران بالنسبة إليها كأنها ليست حارة نعوذ بالله منها ومن جميع أنواع العذاب.

سورة التكاثر
مكية، ثمان آيات، ثمان وعشرون كلمة، مائة وعشرون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَّاثُرُ} أي شغلكم التغالب بالمناقب وبكثرة المال وعدد الرجال والتباهي بذلك عن التدبير في أمر القارعة والاستعداد لها قبل الموت.

روي أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا بالأشراف في الإسلام، فقال كل من الفريقين: نحن أكثر منكم سيداً، وأعز عزيزاً، وأعظم نفراً، فكثرهم بنو عبد مناف، فقال بنو سهم: إن البغي أفنانا في الجاهلية، فعدوا أحياءنا، وأحياءكم، وأمواتنا، وأمواتكم ففعلوا فكثرهم بنو سهم فنزلت فيهم هذه السورة. وروى مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ {أَلْهَىٰكُمُ} وقال ابن آدم يقول: «مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت».

وقرىء «أألهاكم» على الاستفهام التقريري {حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ} أي حتى أتاكم الموت فصرتم في المقابر زواراً تسيرون عنها إلى مكان الحساب. يقال لمن مات: قد زار قبره، وإنما يقال ذلك لأنه لا بد له من انتقال عنها إلى منزله من جنة أو نار. {كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ} أي حقاً سوف تعلمون عند الموت حين يقال لكم لا بشرى وفي وقت سؤال القبر، {ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ} عند النشور حين ينادي المنادي فلان شقي شقاوة لا سعادة بعدها أبداً، وحين يقال وامتازوا اليوم. {كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ} وجواب {لَوْ} محذوف أي حقاً لو علمتم لأي أمر خلقتم لاشتغلتم به وما تفاخرتم في الدنيا، ويقال: إن المعنى لو تعلمون علم الموت وما يلقى

الإنسان معه وبعده في القبر وفي الآخرة لم يلهكم التفاخر عن ذكر الله. {لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ} وهذا جواب قسم محذوف أي والله لترون عذاب الجحيم فإنها يراها المؤمنون أيضاً فكان الوعيد في رؤية عذابها لا في رؤية نفسها.

وقرأ ابن عامر، والكسائي بضم التاء أي أنهم يحشرون إلى الجحيم فيرونها، {ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ} أي ثم لترون نفس الجحيم بعين اليقين فإنهم في المرة الأولى رأوا لهباً لا غير، وفي المرة الثانية رأوا نفس الحفرة وكيفية السقوط فيها وما فيها من الحيوانات المؤذية، ولا شك أن هذه الرؤية أجلى، والحكمة في النقل من العلم الأخفى إلى الأجلى، التقريع على ترك النظر لأنهم كانوا يقتصرون على الظن ولا يطلبون الزيادة، {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ} أي يوم رؤية الجحيم {عَنِ ٱلنَّعِيمِ} في الدنيا فسؤال المؤمن سؤال تشريف وتبشير بأن يجمع له بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة لأنه شكر النعم، وسؤال الكافر توبيخ وتقريع لأنه ترك الشكر حيث قابل نعيم الدنيا بالكفر والعصيان، وروى الحاكم في الحديث: «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم» قالوا: ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية قال: «أوما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألهاكم التكاثر».

سورة والعصر

مكية، ثلاث آيات، أربع عشرة كلمة، ثمانية وستون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَٱلْعَصْرِ} أي الدهر أقسم الله به لأنه مشتمل على الأعاجيب لأنه يحصل فيه السراء، والضراء، والصحة، والسقم، والغنى، والفقر، بل فيه ما هو أعجب من كل عجيب، أو هو العشي أقسم تعالى بالعصر كما أقسم بالضحى، فإن كل عشية تشبه تخريب الدنيا بالموت وكل بكرة تشبه القيامة يخرجون من القبور وتصير الأموات أحياء، وقال الحسن: إنما أقسم الله بهذا الوقت تنبيهاً على أن الأسواق قد دنا وقت انتهائها، وقرب وقت انتهاء التجارة فيها، أو هو صلاة العصر أقسم الله بها لفضلها.

روي أن امرأة كانت تصيح في سكك المدينة وتقول: دلوني على النبي صلى الله عليه وسلم فرآها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألها ماذا حدث فيك قالت: يا رسول الله إن زوجي غاب عني فزنيت فجاءني ولد من الزنا، فألقيت الولد في دن من الخل حتى مات، ثم بعنا ذلك الخل فهل لي من توبة، فقال صلى الله عليه وسلم: «أما الزنا فعليك الرجم، وأما قتل الولد فجزاؤه جهنم، وأما بيع الخل فقد ارتكبت كبيراً، لكن ظننت أنك تركت صلاة العصر» ففي هذا الحديث إشارة إلى تفخيم أمر هذه الصلاة.

{إِنَّ ٱلإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ} أي لفي غبن في مساعيهم وصرف أعمارهم في مباغيهم أو في نقصان عمله بعد الهرم والموت {إِلاَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ} فإنهم في تجارة لن تبور حيث استبدلوا الباقيات الصالحات بالغاديات الرائحات، {وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ} أي تحاثوا بكل ما حكم الشرع بصحته من علم وعمل {وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ} أي تحاثوا بالصبر على أداء فرائض الله واجتناب معاصيه وعلى المرازي.

سورة الهمزة
مكية، تسع آيات، أربع وثمانون كلمة، مائة وإحدى وستون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَيْلٌ} أي شدة عذاب أو واد في جهنم من قيح ودم {لِّكُلِّ هُمَزَةٍ} أي مغتاب للناس من خلفهم {لُّمَزَةٍ} أي طعان في وجوههم نزلت هذه الآية في أخنس بن شريق، فإنه كان يلمز الناس ويغتابهم وخاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قاله عطاء، والكلبي، والسدي، أو في الوليد بن المغيرة كان يغتاب النبي صلى الله عليه وسلم من ورائه، ويطعن عليه في وجهه كما قاله مقاتل وجريج، أو في أبي بن خلف كما قاله عثمان بن عمر أو في أمية بن خلف كما قاله محمد بن إسحق، أو في جميل بن فلال كما قاله مجاهد { ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ} أي أحصاه، وقال الأخفش أي جعله ذخيرة لحوادث الدهر. وقال الضحاك أي أعد ماله لمن يرثه من أولاده، وقيل: أي فاخر بكثرة عدد.

وقرأ حمزة، والكسائي، وابن عامر جمع بتشديد الميم على التكثير، وقرأ الحسن، والكلبي و «عدده» بتخفيف الدال وهو معطوف على مالاً أي وجمع المال، وعدد ذلك المال، أو وجمع عدد نفسه من أقاربه وعشيرته الذين ينصرونه، وقيل: هو فعل ماض بفك الإدغام {يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ} أي يظن الكافر أن ماله جعله خالداً في الدنيا لا يموت لطول أمله ولفرط غفلته، ويعتقد أنه إن نقص ماله يموت لبخله.

قال الحسن: ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه كالموت، وقيل يظن أن المال يخلد صاحبه في الدنيا بالذكر الجميل وفي الآخرة في النعيم المقيم، وهذا تعريض بالعمل الصالح. {كَلاَّ} أي ليس الأمر كما يظن أن المال يخلده، بل العلم، والصلاح وعلى هذا يجوز الوقف هنا أو بمعنى حقاً {لَيُنبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ} أي والله ليطرحن في النار التي تحطم كل من وقع فيها أي تكسره.

وقرىء «لينبذان» بالمثنى أي هو وماله، وقرىء «لينبذن» بضم الذال أي هو وأنصاره وذلك لأن شأنه كسر أعراض الناس فإن الجزاء من جنس العمل، {وَمَآ أَدْرَاكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ} التي هي جزاء الهمزة اللمزة {نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ} أي التي لا تخمد أبداً بقدرته تعالى { ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلأَفْئِدَةِ} أي التي تعلو وساط القلوب، فإنها محل العقائد الزائغة ومنشأ الأعمال السيئة {إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ} أي مطبقة أو مغلقة {فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِ} أي حال كونهم موثقين في عمد ممددة مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص اللهم أجرنا منها يا أكرم الأكرمين، والعمود كل مستطيل من خشب، أو حديد.

وقرأ حمزة، والكسائي، وشعبة «عمد» بضمتين جمع عمود أو عماد. وروي عن أبي عمر والضم والسكون، وقرأ الباقون بفتحتين وهو على القراءتين جمع كثرة لعمود.

سورة الفيل

مكية، خمس آيات، ثلاث وعشرون كلمة، ستة وتسعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{أَلَمْ تَرَ} أي ألم تخبر يا أشرف الخلق، أو ألم تعلم علماً رصيناً باستماع الأخبار المتواترة ومعاينة الآثار الظاهرة {كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ} قال قتادة: إن قائد الجيش اسمه أبرهة الأشرم من الحبشة، فقال سعيد بن جبير: هو أبو الكيشوم {أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ} والهمزة للتقرير أي قد جعل ربك كيدهم في تخريب الكعبة في إبطال بأن دمرهم أشنع تدمير، {وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ} أي طوائف.

روى ابن سيرين عن ابن عباس قال: كانت تلك الطير طيراً لها خراطيم كخراطيم الفيل، وأكف كأكف الكلاب، وروى عطاء عنه قال: طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً، وقيل: كانت بلقاء كالخطاطيف كما قالته عائشة، وقال سعيد بن جبير: كانت طيراً من السماء لم ير قبلها ولا بعدها مثلها. وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: {أَنَّهَا طَيْرٍ بَيْنَ ٱلسَّمَاء وَٱلارْضِ} {تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ} أي طين متحجر مصنوع للعذاب، وقيل بحجارة من جهنم فإن سجين اسم من أسماء جهنم، فأبدلت النون باللام {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولِ} أي كورق زرع أكلته الدود، روي أن أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس، وأراد أن يصرف ليها الحاج، فخرج من بني كنانة رجل وتغوط فيها ليلاً فأغضبه ذلك فحلف ليهدمنّ الكعبة فخرج مع جيشه، ومعه فيل اسمه محمود كان قوياً عظيماً واثنا عشر فيلاً غيره فلما بلغ قريباً من مكة وهو المغمس وهو في أرض الحل قريب من عرفة خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع، فأبى وعبأ جيشه وقدم الفيل محموداً فكانوا كلما وجهوه إلى جهة الحرم برك ولم يبرح، وإذا وجهوه إلى غيرها من الجهات هرول، ثم رجع عبد المطلب وأتى البيت وأخذ بحلقته وهو يقول: لا هم إن المرأ يمنع حله فامنع حلالك† وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك لا يغلبن صليبهم ومحالهم عدواً محالك إن كنت تاركهم وكعبتنا فأمر ما بدا لك ويقول أيضاً: يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع عنهم حماكا إن عدو البيت من عاداكا امنعهم أن يخربوا قراكا فالتفت وهو يدعو فإذا هو بطير من نحو اليمن، فقال: والله إنها لطير غريبة ليست بنجدية ولا تهامية، وكان مع كل طائر حجر في منقاره وحجران في رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره وعلى كل حجر اسم من يقع عليه ففروا فهلكوا، ودوى أبرهة فتساقطت أنامله وأعضاؤه وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يحلق فوقه حتى بلغ النجاشي فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر وخر ميتاً بين يديه، وهذه القصة وقعت في السنة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سورة قريش
مكية، أربع آيات، سبع عشرة كلمة، ثلاثة وسبعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ} واللام إما متعلقة بالسورة التي قبل هذه السورة، وإما متعلقة بالآية التي بعد هذه اللام، وإما متعلقة بمحذوف فعلى الأول، فإن التقدير فجعلهم كعصف مأكول لحب قريش إلخ أي أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف.

روي أن عمر رضي الله عنه قرأ في صلاة المغرب في الركعة الأولى والتين، وفي الثانية ألم تر، ولإيلاف قريش معاً من غير فصل بينهما ببسم الله الرحمٰن الرحيم وإن أبي بن كعب جعلهما في مصحفه سورة واحدة، وعلى الثاني فالتقدير فليعبدوا رب هذا البيت الذي قصده أصحاب الفيل، ثم إن رب البيت دفعهم عن مقصودهم لأجل إيلاف قريش ونفعهم أي ليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة، وعلى الثالث فإن هذه اللام لام التعجب فكأن المعنى: أعجبوا لإيلاف قريش، وذلك لأنهم كل يوم يزدادون غياً وانغماساً في عبادة الأوثان، والله تعالى يؤلف شملهم ويدفع الآفات عنهم وينظم أسباب معايشهم وذلك لا شك أنه في غاية التعجب من عظيم حلم الله وكرمه. {إِۦلَٰفِهِمْ} بدل من إيلاف الأول لأن المبدل منه مطلق والبدل مقيد بالمفعول به، أو توكيد لفظي ف «رحلة» مفعول لإيلاف الأول. وقرأ ابن عامر «لإلاف» قريش بغير ياء بعد الهمزة، والباقون بياء بعدها، وأجمع الكل على إثبات الياء في الثاني أي لمؤالفتهم. قال ابن عادل: ومن غريب ما اتفق في هذين الحرفين أن القراء اختلفوا في سقوط الياء وثبوتها في الأول مع اتفاق المصاحف على إثباتها خطاً، واتفقوا على إثبات الياء في الثاني مع اتفاق المصاحف على سقوطها منه خطاً، فهذا أدل دليل على أن القراء متبعون الأثر والرواية لا مجرد الخط، وقرأ أبو جعفر «لإلف قريش إلفهم» بكسر الهمزة وسكون اللام بزنة حمل وعن ابن عامر «الافهم» بزنة كتابهم كما روي عن ابن كثير أيضاً وروي عن ابن عامر أيضاً، كما روي عن عكرمة «ليلاف» قريش بياء ساكنة بعد اللام، وقرأ عكرمة «ليألف» قريش فعلاً مضارعاً وعنه أيضاً «ليألف» على الأمر {رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ} أي انتقالهما أي كانت لقريش رحلتان رحلة بالشتاء إلى اليمن لأنها أدفأ وبالصيف إلى الشام فكانت أشراف أهل مكة يرتحلون للتجارة هاتين الرحلتين، ويأتون لأهل بلدهم ما يحتاجون إليه من الأطعمة والثياب، وإنما كانوا يربحون في أسفارهم لأن ملوك النواحي كانوا يعظمون أهل مكة، ويقولون هؤلاء جيران بيت الله، وسكان حرمه، وولاة الكعبة حتى إنهم كانوا يسمون أهل مكة أهل الله، فلو تم للحبشة ما عزموا عليه من هدم الكعبة لزال عنهم هذا العز ولبطلت تلك المزايا من التعظيم والاحترام، ولصار سكان مكة كسكان سائر النواحي يتخطفون من كل جانب ويتعرض لهم في نفوسهم وأموالهم، فلما أهلك الله أصحاب الفيل ازدادت قيمة أهل مكة في القلوب وازداد تعظيم ملوك الأطراف لهم، فازدادت تلك المنافع والمتاجر حتى كان فقيرهم كغنيهم، فجاء

الإسلام وهم على ذلك فلهذا قال الله تعالى: {عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ} (الفيل: 1) {لِإِيلَٰفِ} {رِحْلَةَ ٱلشِّتَاءِ وَٱلصَّيْفِ} هذا وتعلق أول هذه السورة بما قبلها من قوله تعالى: {فَعَلَ رَبُّكَ} أو من قوله تعالى: {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ} (الفيل: 5) ليس بحجة على أنهما سورة واحدة لأن القرآن كله كالسورة الواحدة، وكالآية الواحدة يصدق بعضها بعضاً، ويبين بعضها معنى بعض ألا ترى أن قوله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ} (القدر: 1) متعلق بما قبله من ذكر القرآن وأما قراءة سيدنا عمر رضي الله عنه فإنها لا تدل على أنهما سورة واحدة لأن الإمام قد يقرأ سورتين في ركعة واحدة، وقيل: إن المراد رحلة الناس إلى أهل مكة فرحلة الشتاء والصيف عمرة رجب وحج ذي الحجة لأنه كان أحدهما شتاء والآخر صيفاً، وموسم منافع مكة يكون بهما ولو كان ثَمَّ لأصحاب الفيل ما أرادوا لتعطلت هذه المنفعة.

وقرىء «رحلة» بضم الراء وهي الجهة التي يرحل إليها، {فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ} قال الخليل وسيبويه: إن اللام في «لإيلاف» متعلقة بقوله: {فَلْيَعْبُدُواْ} ودخول الفاء فيه لما في الكلام من معنى الشرط وذلك لأن نعم الله عليهم لا تحصى، فكأنه قيل: إن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة وهي إيلافهم رحلتي الشتاء والصيف والمعنى لجعلهم محبين لهما مسترزقين بهما لتيسيرهما عليهم فليعبدوه تعالى {ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ} أي من بعد جوع بحمل الميرة إليهم من البلاد في البر والبحر بواسطة كونهم جيران البيت {وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ} أي من خوف دخول العدو عليهم، ومن خوف زحمة أصحاب الفيل، أو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم، وقال الضحاك والربيع: أي آمنهم من خوف الجذام فلا يصيبهم ببلدتهم جذام، وقيل: آمنهم من خوف الضلال بالإسلام، فقد كانوا في الكفر يتفكرون فيعلمون أن الدين الذي هم عليه ليس بشيء إلا أنهم ما كانوا يعرفون الدين الذي يجب على العاقل أن يتمسك به فكانت نعمة الأمانة دينية فلا تحصل إلا لمن كان تقياً أما نعمة الدنيا فهي تصل إلى البر والفاجر والصالح والطالح.

سورة الماعون

وتسمى سورة الدين، وسورة أرأيت، مكية ومدنية، سبع آيات، خمس وعشرون كلمة، مائة وثلاثة وعشرون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ} فرأى إما بصرية فالمعنى أأبصرت المكذب بالجزاء، أو بالإسلام أو هل عرفته، وإما بمعنى أخبرني الذي يكذب بالحساب من هو، ويدل على هذا قراءة عبد الله بن مسعود أرأيتك بزيادة حرف الخطاب والكاف لا تلحق البصرية، وقرأ نافع بتسهيل الهمزة بعد الراء ولورش إبدالها ألفاً، وأسقطها الكسائي ولم يصح عن العرب «ريت»، ولكن لما كان حرف الاستفهام في أول الكلام سهل حذف الهمزة {فَذَٰلِكَ

ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ} والفاء جواب شرط محذوف أي إن أردت أن تعرف المكذب بالحساب فذلك الذي يدفع اليتيم بعنف عن حقه.

وقرىء «يدع اليتيم» أي يتركه ولا يدعوه أي يدعو جميع الأجانب ويترك اليتيم أي يترك المواساة معه، وإن لم تكن المواساة واجبة وقد يذم المرء بترك النوافل، وقرىء «يدعو اليتيم» أي يدعوه رياء، ثم لا يطعمه، وإنما يدعوه استخداماً أو قهراً، {وَلاَ يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ} أي ولا يحث أهله وغيرهم من الموسرين على صدقة المساكين.

قال ابن جريج: نزلت هذه الآية في أبي سفيان كان ينحر جزورين في كل أسبوع فأتاه يتيم فسأله لحماً فقرعه بعصاه، وقال مقاتل: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وكان من صفته الجمع بين التكذيب بيوم القيامة والإتيان بالأفعال القبيحة، وحكى الماوردي أنها نزلت في أبي جهل.

روي أنه كان وصياً ليتيم فجاءه وهو عريان يسأله شيئاً من مال نفسه فدفعه ولم يعبأ به فأيس الصبي، فقال له أكابر قريش: قل لمحمد يشفع لك وكان غرضهم الاستهزاء، ولم يعرف اليتيم ذلك فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم والتمس منه ذلك وهو صلى الله عليه وسلم ما كان يرد محتاجاً فذهب معه إلى أبي جهل فرحب به وبذل المال لليتيم فعيره قريش، فقالوا: صبوت، فقال: لا والله ما صبوت، لكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربة خفت إن لم أجبه يطعنها فيَّ.

وقال السدي: نزلت في الوليد بن المغيرة وقال الضحاك: نزلت في عمرو بن عائذ المخزومي، وقال عطاء عن ابن عباس نزلت في رجل من المنافقين {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَٰتِهِمْ سَاهُونَ} والنسيان عن الصلاة، هو أن يبقى الإنسان ناسياً لذكر الله في جميع أجزاء الصلاة وهذا لا يصدر إلا عن المنافق الذي يعتقد أنه لا فائدة في الصلاة أما المسلم الذي يعتقد أن فيها فائدة دينية يمتنع أن لا يتذكر أمر الدين والثواب والعقاب في شيء من أجزاء الصلاة. بلى، قد يحصل له السهو في الصلاة بمعنى أنه يصير ساهياً في بعض أجزاء الصلاة فثبت أن السهو في الصلاة من أفعال المؤمن، والسهو عن الصلاة من أفعال الكافر. {ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ} بصلاتهم فإذا فاتتهم مع الناس تركوها بالمرة، والمرائي من يظهر الأعمال عند الناس مع زيادة الخشوع ليعتقد فيه من يراه أنه من أهل الدين والصلاح أما من يظهر النوافل ليقتدي به ويأمن على نفسه من الرياء فلا بأس بذلك وليس بمراء، {وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ} أي ويمنعون الناس الزكاة أو يمنعون الطالبين منافع البيت كالفاس، والقدوم، والإبرة، والقدر، والقصعة، والمغرفة، والمقدحة، والغربال، والدلو، والملح، والماء، والنار.

سورة الكوثر

وتسمى سورة النحر، مكية، ثلاث آيات، عشر كلمات، اثنان وأربعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ}. وقرىء «أنطيناك» يا أشرف الخلـق: { ٱلْكَـوْثَرَ} أي الخير المفرط في الكثرة من شرف النبوة الجامعـة لخيـري الـدارين، فـإن كتاب محمد هو الكتاب المهيمن على كتاب آدم وصـحف إبراهيـم وموسـى، وتحديه بالقرآن، وذلك أعلاه كما تحدى آدم بالأسماء.

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان على شط ماء ومعه عكرمة بن أبي جهل فقال: لئن كنت صادقاً، فادع ذلك الحجر الذي هو في الجـانب الآخر فليسبح ولا يغرق، فأشار الرسول إليه، فانقلع الحجر الذي أشـار إليـه من مكانه وعام حتى صار بين يدي الرسول وسلم عليه، وشهد له بالرسالة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «يكفيك هذا؟» قال: حتى يرجـع إلـى مكانه، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم، فرجع إلـى مكـانه، وهـذا أعظـم من إمساك سفينة نوح على الماء. وعن محمد بن حاطب قال: كنـت طفلاً، فانصب القدر علي من النار، فاحترق جلدي كله فحملتني أمي إلى الرسول صلى الله عليه وسـلم وقـالت: هـذا ابـن حـاطب احـترق كمـا تـرى، فتفـل رسول الله صلى الله عليه وسلم على جلـدي ومسـح بيـده علـى المحـترق منه وقال: أذهب البـأس رب النـاس، فصـرت صـحيحاً لا بـأس بـي، وذلـك أعظم من جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، وأكرم اللـه محمـداً، ففلـق له القمر فوق السماء، وفجر له أصابعه عيوناً وكان الغمام يظلـه، وأعطـاه الله القرآن الذي وصل نوره إلى الشـرق والغـرب، ولمـا أراد أبـو جهـل أن يرميه بالحجر رأى علـى كتفـه ثعبـانين، فانصـرف مرعوبـاً كمـا أكـرم اللـه موسى، ففلق له البحر في الأرض، وفجر له الماء من الحجر، وظلـل عليـه الغمام وأكرمه باليد البيضاء، وقلب عصا موسى ثعباناً وسبحت الأحجار في يد الرسول وأصحابه، وكان هو لما مسح الشاة الجربـاء درت وأكرمـه اللـه بالبراق، سبحت الجبال مع داود، وإذا مسح الحديد لان وأكرمه اللـه بـالطير المحشورة، وأضاف الرسول اليهود بالشاة المسمومة، فلمـا وضـع اللقمـة في فيه أخبرته، وروي أن امرأة معاذ بن عفراء أتته وكانت برصاء، وشـكت ذلك إلى الرسول فمسح عليها رسول الله بغصن، فأذهب الله عنها البرص، وحين سقطت حدقة الرجل يوم أحد فرفعها وجاء بها إلـى الرسـول فردهـا إلى مكانها، والفراء، والكلبي، وأبو الأحوص كأنه تعالى يقول: الكعبة بيـتي، وهي قبلـة صـلاتك، وقلبـك قبلـة رحمـتي، ونظـر عنـايتي، فلتكـن القبلتـان متناحرتين أي متقابلتين، {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلأَبْتَرُ} أي إن مبغضك هو المنقطع عن كل خير، وهو أبو جهل كما قاله ابن عباس.

روي أن أبا جهل اتخذ ضيافة لقوم، ثم إنه وصف رسول الله بالأبتر، ثم قال: قوموا حـتى نـذهب إلـى محمـد وأصـارعه وأجعلـه ذليلاً حقيـراً، فلمـا وصلوا إلى دار خديجة، وتوافقوا على ذلـك، أخرجـت خديجـة بسـاطاً، فلمـا تصارعا جعل أبو جهل يجتهد في أن يصرعه وبقـي صـلى اللـه عليـه وسـلم واقفاً كالجبل، ثم بعد ذلك رماه النبي صلى الله عليه وسلم على أقبح وجه، فلما رجع أخذه باليد اليسرى، فصرعه على الأرض مرة أخرى، ووضع قدمه على صدره، أو هو أبو لهب كما قاله عطاء فإنه صلى الله عليـه وسـلم لمـا شافهه بقوله: تباً لك، كان أبو لهـب يقـول فـي غيبتـه أنـه صـلى اللـه عليـه

وسلم أبتر، فنزلت هذه الآية أو هو العاص بن وائل السهمي، كما قاله عكرمة.

روي أن العاص بن وائل كان يقول: إن محمداً أبتر لا ابن له يقوم مقامه بعده، فإذا مات انقطع ذكره واسترحتم منه، وكان قد مات ابنه عبد الله من خديجة، وهذا قول ابن عباس ومقاتل والكلبي، وعامة أهل التفسير، أو هو عقبة بن أبي معيط، كما قاله شمر بن عطية، فإنه هو الذي كان يقول ذلك، ووصف الله تعالى العدو بكونه شانئاً، إشارة إلى وعده تعالى لرسوله بقهر العدو كأنه تعالى يقول: هذا الذي يبغضك لا يقدر على شيء آخر سوى أنه يبغضك، فيحترق قلبه غيظاً وحسداً.

سورة الكافرون

وتسمى أيضاً سورة المنابذة، أو المعابدة، وسورة الإخلاص، أي إخلاص العبادة، وسورة المقشقشة، أي المبرئة من النفاق. ست آيات وستة وعشرون كلمة، أربعة وسبعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{قُلْ} يا أشرف الرسل: {يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ}.

روي أن الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب، وأمية بن خلف قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا محمد هلم حتى نعبد إلهك مدة، وتعبد آلهتنا مدة، فيحصل الصلح بيننا وبينك، وتزول العداوة من بيننا، فإن كان أمرك رشيداً أخذنا منه حظاً، وإن كان أمرنا رشيداً أخذت منه حظاً، فنزلت هذه السورة فلما نزلت وقرأها على رؤوسهم شتموه وأيسوا منه، {لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} أي لا أعبد الذي تعبدونه في المستقبل والمعنى: لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم من دون الله من الأوثان، {وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ} أي ولا أنتم عابدون في المستقبل عبادتي، أي مثل عبادتي، أي ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلبه منكم من عبادة إلهي وهو الله الواحد، {وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ} أي وما كنت قط عابداً فيما مضى الذين عبدتم فيه، أي لم يعتد مني عبادة صنم في الجاهلية، فكيف ترجى مني في الإسلام {وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ}، أي وما عبدتم في وقت من الأوقات مثل عبادتي، وإنما أخبر صلى الله عليه وسلم أولاً عن الاستقبال، لأنه هو الذي دعوه إليه، فهو الأهم، فبدأ به، أما حكايته صلى الله عليه وسلم عن نفسه فلئلا يتوهم الجاهل أنه صلى الله عليه وسلم يعبد الأوثان سراً، خوفاً منها، أو طمعاً إليها، وأما نفيه صلى الله عليه وسلم عبادتهم، فلأن فعل الكافر ليس بعبادة أصلاً، وإن كان يعبد الله في بعض الأحوال وإنما قال: {مَا أَعْبُدُ} في الرابعة ولم يقل: ما عبدت ليوافق {مَّا عَبَدتُّمْ} في الثالثة، لأن عبادته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة لم تظهر لأحد بخلافها بعدها أما عبادة الكافر قبل البعثة وبعدها فظاهرة عند الناس، {لَكُمْ دِينُكُمْ} وهذا تثبيت لقوله تعالى: {لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} ولقوله تعالى: {وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ}، {وَلِىَ دِينِ} وهذا تقرير لقوله تعالى: {وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} والمعنى:

إن دينكم الذي هو الإشراك مقصور لكم، وإن ديني الذي هو التوحيد مقصور لي، كأنه صلى الله عليه وسلم يقول: إني نبي مبعوث إليكم، لأدعوكم إلى الحق والنجاة، فإذا لم تقبلوا مني، ولم تتبعوني فاتركوني، ولا تدعوني إلى الشرك. وقيل: معنى الآية لكم حسابكم ولي حسابي، ولا يرجع إلى كل واحد منا من عمل صاحبه أثر ألبتة وقيل لكم: العقوبة من ربي ولي العقوبة من أصنامكم، لكن أصنامكم جمادات، فأنا لا أخشى عقوبة الأصنام. وقيل لكم: عادتكم المأخوذة من أسلافكم والشياطين حتى تلقوا الشياطين والنار ولي عادتي المأخوذة من الملائكة والوحي حتى ألقى الملائكة والجنة.

وقرأ نافع وهشام وحفص بفتح ياء «ولي» وحذف ياء الإضافة من «دين» وقفاً ووصلاً السبعة. وجمهور القراء وأثبتها في الحالين سلام ويعقوب.

سورة النصر

وتسمى سورة التوديع لما فيها من الدلالة على توديع الدنيا وهي آخر سورة نزلت قاله ابن عباس مدنية، هي ثلاث آيات وثلاث، عشرون كلمة، تسعة وسبعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ} إن كان نزول هذه السورة قبل فتح مكة، ف «إذا» ظرف مستقبل جوابه فسبح، فإن كان النزول بعد الفتح ف «إذا» بمعنى إذ التي للماضي، فهي على هذا متعلقة بمقدر، أي أكمل الله الأمر وأتم النعمة إذ حصل إعانة الله تعالى على عدوك، {وَٱلْفَتْحُ} أي فتح مكة، وهو الفتح الذي يقال له: فتح الفتوح، وكان لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان، فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة ومعه عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وطوائف العرب إلى أن نزل بمر الظهران، وقدم العباس وأبو سفيان إليه، فاستأذنا، فأذن لعمه خاصة، فقال أبو سفيان: إما أن تأذن لي، وإلا أذهب بولدي إلى المفازة، فنموت جوعاً وعطشاً، فرق قلبه، فأذن له وقال له: «ألم يأن أن تسلم وتوحد؟» فقال: أظن أنه واحد ولو كان هٰهنا غير الله لنصرنا، فقال: «ألم يأن أن تعرف أني رسوله؟» فقال: إن لي شكاً في ذلك، فقال العباس: أسلم قبل أن يقتلك عمر فقال: وماذا أصنع بالعزى؟ فقال عمر: لولا أنك بين يدي رسول الله لضربت عنقك، فقال: يا محمد، أليس الأولى أن تترك هؤلاء الأوباش، وتصالح قومك وعشيرتك، فسكان مكة عشيرتك وأقاربك وتعرضهم للشن والغارة، فقال صلى الله عليه وسلم: «هؤلاء نصروني وأعانوني وذبوا عن حريمي، وأهل مكة أخرجوني وظلموني فإن هم أسروا فبسوء صنيعهم». وأمر العباس بأن يذهب به ويوقفه على المرصاد ليطالع العسكر، ثم تقدم أبو سفيان ودخل مكة وقال: إن محمداً جاء بعسكر لا يطيقه أحد ولما سمع أبو سفيان أذان القوم للفجر وكانوا عشرة آلاف فزع من ذلك فزعاً شديداً، وسأل العباس، فأخبره بأمر الصلاة، ودخل رسول الله صلى الله عليه

وسلم مكة على راحلته ولحيته على قربوس سرجه، كالساجد تواضعاً وشكراً، ثم التمس أبو سفيان الأمان فقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن». فقال: ومن تسع داري فقال: «ومن دخل المسجد فهو آمن» فقال: ومن يسع المسجد فقال: «من ألقى سلاحه فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن»، ثم وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب المسجد وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» ثم قال: «يا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم»، فقالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم فقال: «اذهبوا، فأنتم الطلقاء»، فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم عنوة، وكانوا له فيئاً، فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء، ثم بايعوه على الإسلام، وأقام صلى الله عليه وسلم في مكة خمس عشرة ليلة، ثم خرج إلى هوازن.

وقرىء «فتح الله» و «النصر». {وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوٰجاً}، أي وأبصرت الناس يدخلون في ملة الإسلام جماعات كثيفة كأهل مكة، والطائف، واليمن، وهوازن، وسائر قبائل العرب، وكانوا قبل ذلك فيه واحداً واحداً، واثنين اثنين. وقرىء «يدخلون» على البناء للمفعول {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}. أي فقل سبحان الله حامداً له، {وَ ٱسْتَغْفِرْهُ} أي واطلب غفرانه هضماً لنفسك واستقصاراً لعملك، واستعظاماً، لحقوق الله، واستدراكاً لما فرط منك من ترك الأولى، وكأنه تعالى يقول: إذا جاء نصر الله إياك والمؤمنين، والفتح، ودخول الناس في دينك فاشتغل أنت بالتسبيح والحمد والاستغفار {إِنَّهُ كَانَ تَوَّابَا} أي إنه تعالى يكثر قبول التوبة لكثير من التائبين، والتوبة اسم للرجوع والندم، والإنسان قد يقول: أستغفر الله وليس بتائب، فيكون كاذباً وكان تقدير الكلام: واستغفره بالتوبة، وفي هذا تنبيه على أن خواتيم الأعمال يجب أن تكون بالتوبة والاستغفار، وكذا خواتيم الأعمار.

وروي أنه صلى الله عليه وسلم لم يجلس مجلساً إلا ختمه بالاستغفار. وعن عائشة: كان نبي الله في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب، ولا يجيء إلا قال: «سبحان الله وبحمده» فقلت: يا رسول الله إنك تكثر من قول سبحان الله وبحمده؟ قال: «إني أمرت بها» وقرأ {إِذَا جَاء نَصْرُ ٱللَّهِ}. وعن ابن مسعود لما نزلت هذه السورة كان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الغفور».

قال مقاتل: لما نزلت هذه السورة قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه، وفيهم أبو بكر وعمر، وسعد بن أبي وقاص والعباس، ففرحوا، واستبشوا، وبكى العباس فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ما يبكيك يا عم» قال: نعيت إليك نفسك، أي أخبرت بموتك قال: «إنه كما قلت»، فعاش بعدها ستين يوماً ما رؤي فيها ضاحكاً مستبشراً، وعن ابن عمر نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع، ثم نزل { ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى} (المائدة: 3) فعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعدها ثمانين يوماً، ثم نزلت آية الكلالة، فعاش بعدها خمسين يوماً، ثم نزل لقد جاءكم رسول من أنفسكم، فعاش بعدها خمسة وثلاثين

يوماً، ثم نزل {وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّـهِ} (البقـرة: 182) فعـاش بعدها أحداً وعشرين يوماً، وقيل: أحد عشر يوماً، وقيـل: سـبعة أيـام واللـه أعلم، وتوفي صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول لاثني عشر خلت منه من هجرته إلى المدينة والهجرة، كانت لاثني عشر خلت من ربيـع الأول كمـا أن مولده كذلك على المشهور.

سورة أبي لهب

وتسمى سورة تبت، مكية، خمس آيات، ثلاث وعشرون كلمة، سبعة وسبعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{تَبَّتْ} أي هلكت {يَدَآ أَبِى لَهَبٍ} هو عبد العزى بـن عبـد المطلـب، {وَتَبَّ} أي هلك هو، فالأولى: مشت تمشية الدعاء عليه. والثانية: أخرجت مخرج الخبر، أي وقد حصل الهلاك عليه، فهذه الجملة على هذا على تقدير: قد، ويؤيده قراءة ابن مسعود وقد تب بالتصريح بقد، وقيل: كـل واحـد مـن الجملتين أخبار ولكن أريد بالجملة الأولى هلاك عمله، وبالثانية هلاك نفسه، فإن المرء إنما يسعى لمصلحة نفسه وعمله، فأخبر الله تعالى أنـه محـروم من الأمرين.

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد الصفا ذات يوم وقال: «يـا صـباحاه» فـاجتمعت إليـه قريـش فقـالوا: مـا لـك؟ قـال: «أرأيتـم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقونني؟» قالوا: بلـى، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال: عند ذلك أبو لهب: تبـاً لك ألهذا دعوتنا فنزلت هذه السورة.

وروي أنه قال: فما لي إن أسلمت؟ فقال: «ما للمسلمين» فقال: أفلا أفضل عليهم؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «بمـاذا تفضـل؟» فقـال: تباً لهذا الدين أستوي فيه أنا وغيري.

روي أنه صلى الله عليه وسلم لما دعاه نهاراً فأبى، فلما جن الليل ذهب إلى داره مستناً بسنة نوح ليدعوه ليلاً كما دعاه نهاراً فلما دخل عليـه قـال له: جئتني معتذراً، فجلس النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم أمـامه كالمحتـاج وجعل يدعوه إلى الإسلام وقال: «إن كـان يمنعـك العـار فـأجبني فـي هـذا الوقت واسكت». فقال: لا أؤمن بك حتى يؤمن بك هذا الجدي. فقال صلى الله عليه وسلم للجدي: «من أنا؟» فقال: رسول الله. وأطلق لسانه يثنـي عليه صلى الله عليه وسلم، فاستولى الحسد علـى أبـي لهـب، فأخـذ بيـدي الجدي ومزقه وقال: تباً لـك أثـر فيـك السـحر فقـال الجـدي: بـل تبـاً لـك. فنزلت هذه السورة على وفق ذلك تبت يدا أبي لهب لتمزيقه يـدي الجـدي، وقد حصل له وجود الاعتقاد الباطل، والقول الباطل، والعمـل الباطـل {مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} أي أيّ تـأثير كـان لمـاله وكسـبه فـي دفـع البلاء عنه، فإنه لا أحد أكثر مالاً من قارون، فهل دفع الموت عنه؟ ولا أعظم ملكاً من سليمان فهل دفع الموت عنه؟ أو لا ينفع أبا لهب ماله وكسبه عند ذلـك، فـ «ما» في «ما أغنى» للنفي؟ أو للاستفهام و «ما» في «ما كسب» إمـا

مصدرية أو موصولة حذف عائدها، أو استفهامية أي أيّ شيء كسب فينفعه. روي أن أبا لهب كان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فأنا أفتدي منه نفسي بمالي وولدي فأستخلص منه، وقد خاب مرجاه وما حصل ما تمناه، فافترس أسد ولده عتيبة بالتصغير في طريق الشام فأنزل الله تعالى هذه الآية. والكسب: هو أرباح ماله. وقيل: نتاج ماشيته. وقال ابن عباس: وما كسب هو ولده والدليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: «إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه» وقال صلى الله عليه وسلم: «أنت ومالك لأبيك». ومات أبو لهب بالعدسة بعد وقعة بدر لسبع ليال. والعدسة: بثرة تخرج بالبدن فتقتل، {سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ} أي سيدخل أبو لهب في الآخرة ناراً عظيمة ذات اشتعال. وقرىء بضم الياء وفتح اللام مخففاً ومشدداً، {وَ ٱمْرَأَتُهُ} معه أم جميل العوراء بنت حرب أخت أبي سفيان صخر بن حرب، واسمها العواء. وقيل: اسمها أروى.

وقرىء و «مريئته» بالتصغير للتحقير، {حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ} وماتت مخنوقة بحبلها وكانت لشدة عداوتها للنبي صلى الله عليه وسلم تحمل بنفسها الشوك والحطب، فتنثره بالليل في طريق النبي صلى الله عليه وسلم، وكان عليه السلام يطؤه كما يطأ الحرير.

وقرأ عاصم بالنصب على الشتم، أو على الحال إذا أريد بحمل الحطب في مطلق الزمن، وقرأ الباقون بالرفع على أنه نعت لامرأته إذا أريد به المضي. وقرىء «حمالة للحطب» بالتنوين نصباً ورفعاً فالرفع على الخبر لامرأته، والنصب على الشتم أو على الحال من «امرأته» إن جعلناها مرفوعة بالعطف على الضمير المستتر، فإنها تحمل يوم القيامة حزمة من حطب النار كما كانت تحمل الحطب في الدنيا لأذية الرسول، وحينئذ فجملة «في جيدها» في موضع الحال من «امرأته» وإن جعلناها مرفوعة بالابتداء فجملة «في جيدها» إلخ هو الخبر. {فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ} أي من حديد في الآخرة، فقد قال ابن عباس: هو سلسلة من حديد ذرعها سبعون ذراعاً تدخل من فيها، وتخرج من دبرها، ويكون سائرها في عنقها، قتلت من حديد قتلاً محكماً ويقال: أي في عنقها رسن من ليف المقل وهو شجر الدوم الذي اختنقت به وماتت.

قتادة والضحاك: إن العواء كانت تعيّر رسول الله بالفقر فعيّرها الله بأنها كانت تحتطب في حبل من ليف تجعله في جيدها، فخنقها الله تعالى به، فأهلكها.

سورة الإخلاص

وتسمى سورة المعرفة، وسورة الجمال، وسورة التوحيد، وسورة النجاة، وسورة النور، وسورة المعوذة، وسورة المانعة، لأنها تمنع فتنة القبر ولفحات النار، وسورة البراءة، لأنها براءة من الشرك، مكية، أربع آيات، خمس عشرة كلمة، سبعة وأربعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ} إن هذه السورة نزلت بسبب سؤال المشركين. قال الضحاك: إن المشركين أرسلوا عامر بن الطفيل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: سببت آلهتنا وخالفت دين آبائك فإن كنت فقيراً أغنيناك، وإن كنت مجنوناً داويناك، وإن هويت امرأة زوجناكها فقال صلى الله عليه وسلم: «لست بفقير، ولا مجنون، ولا هويت امرأة، أنا رسول الله أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته». فأرسلوه ثانية وقالوا: قل له بين لنا جنس معبودك أمن ذهب أو فضة؟ فأنزل الله هذه السورة فقالوا له: ثلاثمائة وستون صنماً لا تقوم بحوائجنا، فكيف يقوم الواحد بحوائج الخلق؟ فنزلت {وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ} (الصافات: 1) إلى قوله تعالى: {إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ} (الصافات: 4) فأرسلوه أخرى وقالوا: بين لنا أفعاله، فنزل {إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ} (الأعراف: 45) وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فقال عامر: إلى من تدعونا يا محمد؟ فقال: «إلى الله تعالى» قال: صفه لنا أمن ذهب هو، أم من فضة، أم من حديد، أم من خشب؟ فنزلت هذه السورة، وأهلك الله تعالى أربد بالصاعقة، وعامر بن الطفيل بالطاعون وقيل: نزلت بسبب سؤال النصارى.

روي عن ابن عباس قال: قدم وفد نجران فقالوا: صف لنا ربك، أمن زبرجد، أو ياقوت، أو ذهب، أو فضة؟ فقال: «إن ربي ليس من شيء لأنه خالق الأشياء» فنزل {قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ} قالوا: هو واحد، وأنت واحد، فقال: ليس كمثله شيء، زدنا من الصفة، فقال: «{ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ}» فقالوا: وما الصمد؟ فقال: «الذي يصمد إليه الخلق في الحوائج». فقالوا: زدنا، فنزل {لَمْ يَلِدْ} كما ولدت مريم {وَلَمْ يُولَدْ} كما ولد عيسى {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ} أي ليس له نظير من خلقه.

وقال الضحاك وقتادة ومقاتل: جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك، فإن الله تعالى أنزل صفته في التوراة، فأخبرنا من أيّ شيء هو؟ وهل يأكل ويشرب؟ ومن ورث؟ ومن يرثه؟ فنزلت هذه السورة وصفات الله تعالى إما أن تكون إضافية، وإما أن تكون سلبية.

أما الإضافية: فكقولنا: عالم قادر مريد خلاق. وأما السلبية: فكقولنا: ليس بجسم ولا بجوهر، ولا بعرض، وقولنا: الله يدل على مجامع الصفات الإضافية وقولنا: أحد يدل على مجامع الصفات السلبية، وذلك لأن الله تعالى هو الذي يستحق العبادة، واستحقاق العبادة ليس إلا لمن يستبد بالإيجاد فالاستبداد بالإيجاد، لا يحصل إلا لمن كان موصوفاً بالقدرة التامة، والإرادة النافذة، والعلم المتعلق بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات، والمراد من الأحدية كون تلك الحقيقة في نفسها مفردة منزهة عن أنحاء التراكيب. {ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ} أي السيد المصمود إليه في الحوائج.

وقال ابن مسعود والضحاك: الصمد هو السيد الذي قد انتهى سؤدده. وقيل: الصمد هو الذي ليس فوقه أحد فلا يخاف من فوقه، ولا يرجو من

تحته، ترفع الحوائج إليه. وقال قتادة: الصمد الباقي بعد فناء خلقه، والذي لا يأكل ولا يشرب، وهو يطعم ولا يطعم.

وقال أبيّ بن كعب: هو الذي لا يموت ولا يورث، وله ميراث السموات والأرض.

وقال ابن كيسان: هو الذي لا يوصف بصفة أحد.

قال مقاتل بن حبان: هو الذي لا عيب فيه {لَمْ يَلِدْ} أي لم يصدر عنه ولد لأنه لم يجانسه شيء، {وَلَمْ يُولَدْ} أي لم يصدر عن شيء لاستحالة نسبة العدم إليه تعالى سابقاً ولاحقاً. ويقال: لم يلد، أي ليس له ولد فيرث ملكه، ولم يولد أي ليس له والد فيرث عنه الملك، فلم يرث ولم يورث، {وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ} أي لم يشاكله أحد من صاحبة وغيرها، فيمتنع أن يكون شيء من الموجودات مساوياً له تعالى في شيء من صفات الجلال والعظمة، ثم الآية الأولى: تبطل مذهب الثنوية القائلين: بالنور والظلمة، والنصارى: في التثليث. والصائبين: في الأفلاك والنجوم.

والآية الثانية: تبطل مذهب من أثبت خالقاً سوى الله، لأنه لو وجد خالق آخر لما كان الحق مصموداً إليه في طلب جميع الحاجات.

والآية الثالثة: تبطل مذهب اليهود في عزير، والنصارى في المسيح والمشركين في أن الملائكة بنات الله.

والآية الرابعة: تبطل مذهب المشركين حين جعلوا الأصنام شركاء له تعالى. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن لكل شيء نوراً ونور القرآن {قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ}».

وروي أنه صلى الله عليه وسلم دخل المسجد، فسمع رجلاً يدعو ويقول: أسألك يا الله يا أحد، يا صمد، يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد فقال: «غفر لك، غفر لك، غفر لك»، ثلاث مرات.

وعن سهل بن سعد جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وشكا إليه الفقر فقال: «إذا دخلت بيتك فسلم إن كان فيه أحد وإن لم يكن فيه أحد فسلم على نفسك واقرأ قل هو الله أحد مرة واحدة». ففعل الرجل فأدر الله عليه رزقاً حتى أفاض على جيرانه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: «من قرأ قل هو الله أحد بعد صلاة الصبح اثنتي عشر مرة فكأنما قرأ القرآن أربع مرات وكان أفضل أهل الأرض يومئذ إذا اتقى».

وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال: «من قرأ قل هو الله أحد في مرضه الذي يموت فيه، لم يفنن في قبره وأمن من ضغطة القبر وحملته الملائكة بأكفها حتى تجيزه من الصراط إلى الجنة».

سورة الفلق

مدنية، خمس آيات، ثلاث وعشرون كلمة، أربعة وسبعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قيل: إن الله تعالى أنزل المعوذتين عليه صلى الله عليه وسلم ليكونا رقية من العين. وروي أن جبريل عليه السلام أتاه وقال: إن عفريتاً من الجن يكيدك فقال: إذا أويت إلى فراشك قل: أعوذ برب السورتين.

وقال ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا من الأوجاع كلها والحمى هذا الدعاء «بسم الله الكريم أعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار ومن شر حر النار». {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ} أي الصبح، فإنه وقت دعاء المضطرين، وإجابة الملهوفين، فكأنه يقول: قل أعوذ برب الوقت الذي يفرج فيه عن كل مهموم، ولأنه أنموذج من يوم القيامة، لأن الخلق كالأموات والدور كالقبور، ثم منهم من يخرج عن داره مفلساً عرياناً، ومنهم من كان مديوناً فيجر إلى الحبس، ومنهم من كان ملكاً مطاعاً، فتقدم إليه المراكب ويقوم الناس بين يديه، وكذا في يوم القيامة بعضهم مفلس عن الثواب، عار عن لباس التقوى. فيجر إلى الملك الجبار، وبعضهم كان مطيعاً لربه في الدنيا، فصار ملكاً مطاعاً في العقبى يقدم إليه البراق.

وقيل: الفلق وادٍ في جهنم أوجب فيها.

روي عن بعض الصحابة أنه قدم الشام فرأى دور أهل الذمة وما هم فيه من خصب العيش فقال: لا أبالي ألبس من ورائهم الفلق. فقيل: وما الفلق؟ قال: بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره، وإنما خصه الله بالذكر هٰهنا، لأنه القادر على مثل هذا التعذيب وقد ثبت أن رحمته تعالى أعظم من عذابه فكأنه يقول: يا صاحب العذاب الشديد أعوذ برحمتك التي هي أعظم وأقدم من عذابك.

وقال الرازي: وأقرب التأويلات أن الفلق هو كل ما يفلقه الله تعالى كالأرض عن النبات والجبال عن العيون، والسحاب عن الأمطار، والأرحام عن الأولاد، والبيض عن الفرخ، والقلوب عن المعارف، فكأن الله تعالى هو الذي فلق بحار ظلمات العدم بأنوار الإيجاد وكأنه تعالى قال: قل أعوذ برب جميع الممكنات ومكون المحدثات، فيكون التعظيم فيه أعظم ويكون الصبح وجبّ النار أحد الأمور الداخلة في هذا المعنى، {مِن شَرِّ مَا خَلَقَ} أي من شر كل ذي شر خلقه الرب من إبليس، ومن جهنم، ومن أصناف الحيوانات المؤذيات كالسباع والهوام وغيرهما، {وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ} أي ومن شر قمر إذا طلع، كما أخرجه الترمذي من حديث عائشة قالت: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي، فأشار إلى القمر فقال: «نعوذ بالله من شر هذا، فإنه الغاسق إذا وقب»، ومعنى غسوق القمر: امتلاؤه فوقوبه دخوله في الخسوف، أو من شر شمس إذا غربت كما قاله ابن شهاب، وإنما سميت غاسقاً، لأنها في الفلك تسبح، فسمي جريانها بالغسق ووقوبها دخولها تحت الأرض، أو من شر ثريا إذا سقطت، لأن الأسقام تكثر عند سقوطها وترتفع عند طلوعها، كما قاله عبد الرحمن بن زيد، وعلى هذا تسمى الثريا غاسقاً لانصبابه عند وقوعه في المغرب، ووقوبه دخوله تحت الأرض وغيبوبته عن الأعين، أو من شر حية إذا لدغت {وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ} أي ومن شر النساء اللاتي يبطلن عزائم

الرجال بالحيل كما اختاره أبو مسلم، فمعنى الآية: أن النساء لأجل كثرة حبهن في قلوب الرجال يتصرفن فيهم ويحوّلنهم من رأي إلى رأي، ومن عزيمة إلى عزيمة، فأمر الله رسوله بالتعوذ من شرهن {وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} أي إذا أظهر ما في نفسه من الحسد، وعمل بمقتضاه كتهيئة مبادي الإضرار بالمحسود قولاً أو فعلاً.

سورة الناس

مدنية، ست آيات، عشرون كلمة، تسعة وتسعون حرفاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{قُلْ} يا أشرف المرسلين {أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ} أي ألتجىء بمصلح الناس والقائم بتدبيره، وذكر الله أنه رب الناس على التخصيص مع أنه رب جميع المحدثات، لأن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم، وهو معبودهم. وقرىء في السورتين بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام، {مَلِكِ ٱلنَّاسِ} عطف بيان، جيء به لبيان أن تربيته تعالى إياهم بطريق الملك الكامل والتصرف الكلي لا بطريق تربية سائر الملاك لمماليكهم، ولا يجوز هٰهنا «مالك الناس» بإثبات الألف بخلاف {مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ} في سورة الفاتحة (الآية: 4) والفرق أن قوله: {رَبّ ٱلنَّاسِ} أفاد كونه مالكاً لهم فلا بد وأن يكون المذكور عقبه هذا الملك ليفيد أنه تعالى مالك وملك معاً، فإن قيل: أليس قال تعالى في سورة الفاتحة: {رَبّ ٱلْعَٰلَمِينَ} (الآية: 2) ثم قال: {مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ} (الآية: 4) فيلزم وقوع التكرار هناك قلنا: اللفظ دل على أنه رب العالمين، وهي الأشياء الموجودة في الحال، وعلى أنه مالك ليوم الدين، فهناك «الرب» مضاف إلى شيء موجود الآن، و «المالك» مضاف إلى شيء يوجد في الآخرة، فلم يلزم التكرير، فظهر الفرق، وأيضاً فإن جواز القراءات يتبع النزول لا القياس، {إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ} عطف بيان جيء به لبيان أن ملكه تعالى بطريق المعبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي فيهم إحياء وإماتة، وإيجاداً وإعداماً، فوصف الله أولاً بأنه رب الناس، ثم الرب قد يكون ملكاً وقد لا، فبين بقوله ملك الناس، ثم الملك قد يكون إلهاً وقد لا، فبين بقوله {إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ} لأن الإله خاص بالله تعالى لا يشركه فيه غيره، وأيضاً إن أول ما يعرف العبد من معبوده كونه معطياً لما عنده من النعم الظاهرة والباطنة، وهذا هو الرب، ثم ينتقل من معرفة هذه الصفة إلى معرفة استغنائه عن الخلق، فيحصل العلم بكونه ملكاً، لأنه هو الذي يفتقر إليه غيره ويستغني عن غيره، ثم عرف العبد أنه هو الذي ولهت العقول في عزته وعظمته، فيعرف أنه إله حقيقة {مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ} بفتح الواو هو بمعنى الموسوس وهو الشيطان { ٱلْخَنَّاسِ} أي الذي يتأخر عند ذكر الإنسان ربه والوقف هنا كاف لمن رفع ما بعده أو نصبه على الشتم، ولا وقف هنا لمن جعل ما بعده نعتاً للوسواس، { ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ} أي في قلوب الغافل عن ذكر الله، وسقوط الياء عن الناس

كسقوطها في قوله تعالى: {يَوْمَ يَدْعُو ٱلدَّاعِ} (القمر: 6) {مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ} بيان للناسي عن ذكر الله فإنهما النوعان الموصوفان بنسيان حق الله تعالى، وعلى هذا لا يحتاج إلى تكلف بعض العلماء من جعل قوله: {مِنَ ٱلْجَنَّةِ} بياناً للوسواس، وجعل قوله: {وَٱلنَّاسِ} عطفاً عليه، فكأنه قيل: من شر الوسواس الذي يوسوس، وهو الجن ومن شر الناس اه. ومن جعل قوله تعالى: {مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ} عطفاً على { ٱلْوَسْوَاسِ} بتقدير حرف العطف. فالمعنى: قل أعوذ برب الناس من الوسواس الخناس ومن الجنة والناس، كأنه استعاذ بربه من الشيطان الواحد، ثم استعاذ بربه من جميع الجنة والناس، وفي هاتين السورتين لطيفة وهي أن المستعاذ به في السورة الأولى مذكور بصفة واحدة، وهي أنه رب الفلق والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات: وهي الغاسق، والنفاثات، والحاسد. أما في هذه السورة المستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة: وهي الرب والملك والإله والمستعاذ منه آفة واحدة، وهي الوسوسة، والفرق بين الموضعين أن الثناء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب، فالمطلوب في السورة الأولى: سلامة النفس والبدن، والمطلوب في السورة الثانية: سلامة الدين. وهذا تنبيه على أن مضرة الدين وإن قلت أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت. والله أعلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقد انتهى ما من الله به علينا من المعاني الميسرة والألفاظ المسهلة في
خامس ربيع الآخر
ليلة الأربعاء عام سنة 1305 ألف وثلاثمائة وخمسة على يد الفقير إلى
الله تعالى محمد نووي غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولإخوانه
المسلمين. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى أله
وصحبه أجمعين. والحمد لله رب
العالمين. آمين